بحوث ودراسات

حول النظام المعرفي في القرآن الكريم

محمود عايد الرشدان*

مقدمات

الأساس الذي ينطلق منه هذا البحث، يقوم على تصور أن مكانة أي أمة ومقامها بين الأمم، تقررها ثلاثة أنظمة مترابطة متداخلة، يؤثر بعضها في البعض الآخر، وهذه الأنظمة هي :

1- النظام الاعتقادي.
2- النظام المعرفي.
3- النظام القيمي.

فقد انتقلت الأمة المسلمة، من مكانة الخيرية والشهادة على الناس، إلى منزلة الغثائية والتبعية الحضارية، نتيجة تشوهات متراكمة في هذه الأنظمة الثلاثة، بأسباب وعوامل داخلية ابتداءً، سهلت ومكنت للعوامل والقوى الخارجية أن تحيل هذه الأمة إلى جثة هامدة ممزقة، تنتظر ببلادة عجيبة تنفيذ حكم الإعدام بأيدي أعدائها، وبعض أبناءها على السواء.[1]

---

* دكتوراه في التربية والتنمية من جامعة ويسكنسن في الولايات المتحدة الأمريكية 1975م. عميد كلية العلوم التربوية في جامعة الزرقاء الأهلية (الأردن).

[1] هذا الافتراض مبني على فهمنا لآيات قرآنية عديدة منها:
أ- ﴿وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر 1-3).
ب- ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ([المجادلة: 11).
ج- ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110).
د- ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة:143)، وعلى أحاديث نبوية شريفة منها:

ويقتصر الحديث في هذا البحث على بعض جوانب النظام المعرفي وما أصابه من خلل وتشوهات، وما يمكن عمله فيه من أجل إعادة بنائه وتأسيسه على هدي من النظام المعرفي في القرآن الكريم.

ومن أخطر ما أصاب النظام المعرفي عند المسلمين من تشوهات وانحرافات التحول التدريجي المستمر من نظام للمعرفة ينبت في عقيدة التوحيد، ويتطور بالاجتهاد والتجديد، إلى نظام قائم على الازدواجية بين ما هو (**علماني**) وما هو (**ديني**)، وعلى الخصومة بين ما هو وحي وما هو اجتهاد بشري، نظام قائم على **التقليد والجمود**.

ولقد سيطر على أنظمة التعليم في العالم العربي والإسلامي منذ عدة قرون فئتان من المقلدين: **الجامدين والجاحدين**. ففئة المقلدين الجامدين، يرون أنه لم يترك الأولون الآخرين شيئاً، وفئة المقلدين الجاحدين، غيروا قبلتهم الحضارية والفكرية إلى الغرب، فلم يروا خيراً ولا تقدماً إلا في الغرب ومناهجه، وأصبح جلّ همهم تقليده وإتباعه حتى لو دخل جحر ضب لدخلوه.

وكان من نتائج هذا الانفصام والتحول في النظام المعرفي والتعليمي عند المسلمين، ظهور خصومة بين عقيدة الأمة وثقافتها وقيمها من جهة، والسياسات والمناهج التربوية والإعلامية من جهة أخرى. وهكذا قام نظام تربوي –تعليمي– إعلامي، محروم من الشرعية، ومن الكفاءة والفاعلية على حد سواء. حيث أن شرعية النظام المعرفي والتعليمي تقوم على ارتباطه بعقيدة الأمة وثقافتها وقيمها، أما صلاحيته وكفاءته فتقومان على مدى قدراته على تحفيز واستنهاض أبناء الأمة واستثمار طاقاتها، وملاءمته لتلبية حاجات الأمة، وتمكينها من مواجهة التحديات التي تقابلها. وصناعة مستقبل أقل فرقة وتبعية وأكثر عزة وازدهاراً.

ولقد تجلت هذه الخصومة وذاك الانفصام، بين عقيدة الأمة وثقافتها وتراثها من جهة، وأنظمتها التربوية والإعلامية والاقتصادية من جهة أخرى، في المعارك المصطنعة بين **الأصالة والمعاصرة وبين الإسلام والعروبة**، وبين المصالح المحلية والمصالح الوطنية، وغير ذلك من الثنائيات.

حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي، حدثنا بشر بن بكر حدثنا ابن جابر، حدثني أبو عبد السلام عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل يا رسول الله؛ وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت". (رواه أبوداود: السنن، 165/6).

ولسوء الحظ، فلقد اكتسب مصطلحا **الأصالة والمعاصرة** ظلالاً فكريةً عقدية، واستخدما بطرق أدت إلى تعميق الازدواجية والخصومة بين التراث الذي قُدِّم على أنه يمثل الأصالة، والتحديث (التغريب) الذي قُدِّم على أنه يمثل المعاصرة. وهكذا، فبدلاً من أن يترجم الولاء للأمة والحرص على نهضتها إلى فهم التراث واستيعابه والبناء عليه، بالاجتهاد من جهة، وفهم واستيعاب الحضارة الغربية والاستفادة من منجزاتها، بعد تصفيتها بمصفاة عقيدة الأمة وقيمها، من جهة أخرى، وبدلاً من ذلك حوّلت الأصالة والمعاصرة إلى معسكرين متناقضين متحاربين، ينتقص أحدهما الآخر، وأصبحت الأمة مشلولة في نصفيها. أسهم في هذا العجز والشلل، **الجامدون والجاحدون** على السواء.

والحق إن الأمة تحتاج إلى نظام معرفي تعليمي أصيل ومعاصر معاً، ومن أعجب العجب أن يظن إنسان أنه يمكن أن يكون أصيلاً ولكنه غير معاصر، أو معاصراً ولكنه غير أصيل، فمن واجبات الأصالة وصفاتها الشهادة على الناس، والشهادة الحقة لا تكون إلا بالمعاصرة والتدافع.

والمعاصرة الحقة لا تكون إلا بالأصالة والانتماء، وإلا أصبحت تقليداً أعمى واغتراباً وتبعية. وإن كانت الأصالة أو المعاصرة دواءً، فإن لكل دواء مدة صلاحية، وبيئة زمانية ومكانية تحدد فاعليته. كما أنه تظهر في كثير من الأحيان مضاعفات جانبية خطيرة نتيجة استعمال دواء ثبتت صلاحيته وكفاءته في مكان معين وزمان محدد، عند استخدامه من قبل أناس آخرين، أحوالهم وأزمانهم مختلفة. ويطلق المفكر **مالك بن نبي** على الأفكار المنقولة من الماضي دون تجديد: **الأفكار الميتة**، وعلى الأفكار المنقولة من بيئات ثقافية وحضارية مختلفة دون تمحيص **الأفكار القاتلة**.[2] وهكذا تصير الأصالة والمعاصرة في ممارساتها المشوهة، تداولاً للأفكار الميتة والأفكار القاتلة في آن واحد. والأمة التي يكثر فيها القتلة والموتى، تكثر فيها المقابر والسجون، وتتعطل فيها الطاقات والمواهب.

ولقد عالج كثير من الباحثين والعلماء هذه الخصومة الفاسدة بين الأصالة والمعاصرة، وبين الدين والدنيا، وبين القديم والجديد، ونكتفي في هذا المقام بالاستشهاد برأي الدكتور زكي نجيب محمود إذ يقول:

---

2 مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دمشق: دار الفكر، 1988، ص146-152.

"شر خيانة يخون بها المعاصرون أمانة السالفين، هي أن يقلدوهم تفصيلة بتفصيلة، وموقفاً بموقف، وإنما تصان الأمانة بأن نحافظ على المنظار الذي يساعدنا على رؤية ما هو دقيق، وما هو بعيد، دون أن نتوقف أن نرى المشاهِد نفسها التي كان قد شاهدها السابقون بهذا المنظار... إن حاضرنا لا بد أن يكون نسيجاً من قديم وجديد والقديم هو لحمته والجديد هو سداه".[3]

ويتابع الدكتور **زكي محمود** معالجته بقوله:

"إذا أردنا تغيير وجه الحياة التي نحياها، فلن يكون ذلك بأن نفتح كتب السابقين لنروي عنهم ما قالوه، وننقل عنهم ما صنعوه، وإنما السبيل القويمة، بل السبيل الوحيدة، هي أن نسأله عمّا يراد تحقيقه في **المستقبل**، فالماضي لا بد منه، لا لنجعل منه نموذجاً نحتذيه بل ليكون مصدراً للإلهام فيما ينبغي أن نصنعه. إنّ ولاءنا لآبائنا يجب أن يكون في محاكاتهم في وقفتهم تجاه الحياة، لا في إعادة ما صنعوه حرفاً بحرف، وكانت وقفة آبائنا في عصور القوة هي المغامرة والمخاطرة، وهي في إبداع الجديد، ليضيفوا مرحلة جديدة في حياة الإنسان.

والولاء لهم إنما يكون في اتخاذنا من حياتنا وقفة كهذه، تبدع وتضيف، تخاطر وتغامر، تخوض التجربة وتتعرض للخطأ، لتعرف الصواب... ولن نستطيع أن ننهض من الكبوة الحضارية التي طال بنا عهدها بحيث نسير مع سائر الدنيا سير الشركاء لا سير الأتباع إلا إذا جاءت الحوافز من الدين، والوسائل من العلم".[4]

ويجدر بنا عند هذا الحد أن نثير السؤال التالي: لماذا استطاع المنهج العلماني وما يصاحبه من فصل الدين عن الدولة أن يقود المجتمعات الغربية إلى إنجازات علمية وحضارية مكنتها من سيادة العالم، بينما لم تستطع الدول المسلمة التي تبنت العلمانية وفرضتها على مجتمعاتها تحقيق تقدم مماثل؟!

إن الإجابة على هذا السؤال جد مهمة، ويقتضي ذلك القيام ببحوث مستقلة من اختصاصات متعددة قائمة على منهجية توحيدية، ولكننا نستطيع أن نقرر في هذا المقام ما يأتي: إن الإبداع العلمي

---

3 زكي نجيب محمود: هذا العصر وثقافته، القاهرة: دار الشروق، 1976، ص50-51. كما ورد في عبد الغني عبود، "إسلامية العلوم التربوية بين المؤيدين والمعارضين"، بحث كتب عام 1996م (غير منشور)، ص19.

4 المصدر نفسه، ص203-204.

والإنجاز الحضاري، كلاهما يحتاج إلى عقول متحررة من الخرافة والخوف، متحفزة لاكتشاف المجهول، وإلى نفوس متحررة من القهر والكبت والطغيان. فعقلية القطيع ونفسية العبيد لا يمكن أن تكون مكتشفة أو مجتهدة ومجددة. ولقد استطاعت حركة التنوير والعلمانية في الغرب أن تحرر العقل الغربي وتطلق عقاله من الخرافة والتبعية لسلطان الكنيسة المتخلف الذي فرض باسم الدين، وتحرر النفوس من العبودية والقهر الذي فرضته الأنظمة السياسية المتحالفة مع الكنيسة.

إن العقل المسلم لم يتحرر من الخرافة إلا بالوحي، ولم يتحرر العربي من جاهليته القبلية وتبعية الأكاسرة والأباطرة إلا برسالة الإسلام العالمية. فالعلمانية أفقرت العقل المسلم وغربته، ذلك أنه فصلته عن منابع تحفيزه وهدايته، وقطعت جذوره عن مصادر تغذيته وقوته، فالعلمانية قطعت علاقة المسلم بالوحي، ذلك المصدر الخالد الذي من شأنه تحريره من الخرافة والجهل، ومن الخوف والذل، والحافز الملهم لإنجازه وعبقريته. كما فصلت العلمانية العقل المسلم عن تراثه وثقافته، فأصبح كشجرة منبتة لا تؤتي ثمرة، ولا تمد ظلاً. ومن جهة أخرى، فقد فصلت العلمانية في المجتمعات المسلمة، الدولة والحكومة عن الشعب والمجتمع، ذلك أنه فُرِضت تتويجاً للهيمنة الغربية على العالم الإسلامي، بينما أنشأت في المجتمعات الغربية حكومات ديمقراطية تمثل شعوبها، فكانت حكومات من **الشعب وللشعب وبالشعب**.

وقد كانت العلمانية في الغرب نبتاً طبيعياً لحل الصراع والتناقضات التي سادت بين مواقف الكنيسة وما تدعيه لنفسها من معرفة بالعلام، وما يتوصل إليها العلماء الباحثون بالمشاهدة والتجربة، فكانت العلمانية في الغرب حركة قد حان موعدها لإنهاء سيطرة "رجال الدين" وخرافاتهم على المجتمع وطاقاته الروحية والعقلية.

يصف أحد الباحثين المسلمين علاقة الوحي بالعقل المسلم فيقول:

"لقد فتح الوحي للعقل المسلم أبواباً شتى من العلوم والمعارف ليس في مجال العلوم اللغوية والشرعية فقط، بل وامتد ذلك إلى علوم الطب والجدل والهيئة والهندسة، والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك...

فالوحي هو الموضوع الأساسي لجميع العلوم، بل إن الحضارة الإسلامية كلها، إن هي إلا محاولة لعرض فكري منهجي لهذا الوحي، ويتضح ذلك من أبنية العلوم نفسها".[5]

ويحلل الشيخ **محمد الفاضل بن عاشور**، مثل هذه العلاقة ويشير إلى الاختلاف بين بعض الأمم ذات العقائد الدينية التي أنجزت مثل ما أنجزت الأمة الإسلامية من علوم وحضارة، ثم اعترتها أزمات اعتقادية كبرى إلى درجة الإلحاد والتعطيل، ومع ذلك لم يصبها ما أصاب الأمة المسلمة من تهلهل وانحطاط في حضارتها، هذا مع أن الأمة المسلمة وإن نالها شيء عظيم في عقيدتها سواء كان من حيث الجوهر أم من حيث التصريف، فإنها لم تزايلها ثباتاً ولم تنقطع عنها، فيقول رحمه الله:

"وهذا راجع إلى موقع العقيدة الدينية من المقومات لكيان الأمة، فإن موقع العقيدة الدينية من مقومات الكيان الاجتماعي للأمة الإسلامية باعتبارها مجتمعاً دينياً بالمعنى الأخص، وهو موقع رئيس جوهري كان فيه الدين العامل الأول المباشر لصنع المجتمع، وكان هو الحافز لنهضته الفكرية، والممهد له طريق الاتصال بما أنتجت من الأفكار والصنائع... **فبالدين فكّر، وبالدين تحضّر، وبالدين أنتج آثار حضارته، وبالدين أقام الدولة الصائنة للمجتمع وحضارته**".[6]

وفي الحقيقة فإن الإنجازات العلمية والحضارية الغربية التي جاءت نتيجة حركة التنوير العلمانية، لم تمثل طلاقاً بائناً بين الحضارة الغربية والدين المسيحي، بل مثلت انفصالاً بين اختصاصات "رجال الدين"، ورجال العلم، وفصلاً بين ما لله وما لقيصر في الاقتصاد والدولة. فالحضارة الغربية العلمانية الحديثة حضارة نصرانية في لحمتها، يونانية ورومانية في سداها، يهودية في قيمها وتوجهاتها وأساليب معاشها وعلاقاتها مع الآخرين.

ومن جهة أخرى، فإننا لا نعرف في مصادر الإسلام من قرآن وسنة، أو في التراث الإسلامي، ما يدل على وجود وقيام مؤسسة شبيهة بمؤسسة الكنيسة الغربية، أو طبقة شبيهة بطبقة رجال الدين المسيحي. وهكذا فإننا نرى تبايناً وتناقضاً في المسار الحضاري للمسلمين من جهة وللغرب المسيحي من جهة أخرى،

---

5 عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب: منهجية البحث في التربية الإسلامية: رؤية مغايرة، جامعة المنصورة: إدارة البحوث، 1996 ص: 112. والنص مقتبس من طاش كبرى زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، د. ت، ج2، ص530-537.

6 محمد الفاضل بن عاشور: روح الحضارة الإسلامية، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992، ص74-75.

حيث أن الازدهار الحضاري للعالم الإسلامي قد سبقه وصاحبه ازدهار لعلوم القرآن والسنة، جنباً إلى جنب مع ازدهار العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، بينما نرى أنه في المسار الحضاري للغرب المسيحي لم تزدهر العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، إلا بعد تقويض نفوذ الدين المسيحي ورجاله على النفوس والمجتمع.

هكذا فعندما حاولت الدول المسلمة اقتباس النماذج الغربية العلمانية في التربية والتنمية، وحاولت فرضها على المسلمين، لم تحدث هذه المحاولات في العقل المسلم إلا إفقاراً للمواهب، وشللاً للطاقات، وتبديداً للموارد.

فماذا حدث للمسلمين؟ ولماذا لم يستطيعوا منذ قرون إيقاف التدهور الحاصل لحضارتهم ومجتمعاتهم؟ وأين مهمة عقيدة التوحيد فيهم؟ وكيف أصبحت معتقداتهم في وادٍ ومؤسساتهم وأنماط حياتهم في وادٍ آخر؟ ولتوضح هذه الظاهرة نعود إلى الشيخ ابن عاشور مرة ثانية إذ يقول:

"إن الإرادة الاعتقادية البناءة هي التي خارت وضعفت، فأصبحت الأوضاع الاجتماعية، والآثار المدنية تصدر عن غير ما كانت تصدر عنه، فصارت هي في وادٍ، والعقيدة الدينية في وادٍ، وبقي المسلم وفياً لعقيدته الدينية، غيوراً عليها من جهة، متقبلاً لحياته العملية، مطمئناً إلى واقعها من جهة أخرى، حتى أصبح المبدأ النظري والواقع العملي عنده متباينين... يعرف الشر ويعيش به، فهانت نفسه أيضاً في نظره لأنه تعيش أسيرة لحياة الشر، لا تستطيع أن تغيره، ولا أن تتنحى عنه، وتولدت عن ذلك **العقد النفسية الخطيرة، عقدة الشعور بالنقص الذاتي، وعقدة اليأس من استضافة الحقيقة الدينية، وعقدة الإلف لحياة الشر، مع موت الوازع الذي يصدها،** وتولدت عن ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا، باعتبار أن **الدين خير غير واقع والدنيا شر واقع**... فأصبح الذي كان يصدر عن إرادته الدينية القوية، صادراً عن يأسه من الدين الذي أضعفه وأفناه".[7]

---

[7] المصدر نفسه، ص76-77.

وعلى أي حال فقد آلت العلمانية إلى (دين)، دين ينزع القدسية عن كل ما هو مطلق غير مادي وغير قابل للقياس والتجربة، ويقدس كل ما هو مادي تجريبي كمي. وفي هذا الدين الجديد، دين العلمانية، كل شيء نسبي؛ أما الروح والوحي فليس لهما أي أهمية في تقدم الإنسان وتنميته، والعقل المسلم إذا فُصِل عن تعلقه بالحقائق والقيم المطلقة، التي يدل عليها الوحي، يصبح عقلاً ضعيفاً لا يقدر على الإبداع ولا على الاجتهاد.

إن النسبية والنفعية الآنية (البراجماتية) تسودان النظم الثقافية والتعليمية الغربية، وفي ظل هذه السيادة فليس هناك قيمة مطلقة ولا حقيقة مطلقة. ويصف أحد علماء التربية الأمريكيين هذا الوضع كما يأتي:

"إن هذه الحماقة تعني أنه لا يسمح للناس أن يبحثوا عن الفضيلة الإنسانية الفطرية ثم يلتزموا بها عند اكتشافها، لأن هذا الاكتشاف يصاحبه اكتشاف الشر والرذيلة وازدراؤهما، ولهذا فإن الفطرة والعقل يجب أن يُكْبتا بالتعليم، والروح الحقيقية يجب أن تستبدل بروح مصطنعة".[8]

وفي ظل ثقافة النسبية والنفعية الآنية، فإنه ليس هناك مكان للإنسان المثل والقدوة، دع عنك الإنسان الكامل. ويصف العالم الأمريكي نفسه (آلان بلوم) هذا الحال بقوله :

"الناس بشكل عام والشباب منهم بشكل خاص، عندهم تصور قوي عن الجسم المثالي، وإنهم يسعون إليه باستمرار. ولكنه لم يعد لديهم أي تصور عن النفس المثالية، ومن ثمّ لا يطمحون إليها، بل هم لا يتخيلون أن يكون هناك مثل هذا الشيء".[9]

إن هذا التصور الغربي العلماني القائم على النسبية في كل شيء، يتناقض مع المفهوم القرآني لخلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وتقريره أنّ خُلُق الرسول **صلى الله عليه وسلم** خُلُقٌ عظيم، وأنه للمؤمنين أسوة حسنة، ومثال يقتدى ونموذج يحتذى.

---

8 انظر:
Alan Bloom: The Closing of the Americn Mind, New York: Simon and Schuster, 1987, p30.

9 المصدر نفسه، ص67.

وهذه الخلافات والتناقضات بين نظام الإسلام القائم على التوحيد والتكامل، والنظام العلماني القائم على النسبية واللذة الآنية، لا بد أن تقود إلى أجوبة مختلفة عن الأسئلة الرئيسة التي تثور في ملكة كل إنسان وفطرته: من أنا؟ ما طبيعتي وما الغاية من وجودي وحياتي؟ ما مصيري بعد الموت؟ ما حقيقة علاقتي مع نفسي ومع الحياة ومع الكون وما طبيعتها؟

إن اختلاف الأجوبة عن هذه الأسئلة الفطرية الإنسانية واختلاف مرجعياتها واختلاف مناهج الوصول إليها، كفيل بأن ينتج نظماً معرفية وحياتية مختلفة في أهدافها ومناهجها ووسائلها.

إن تطوير نظام معرفي إسلامي، **يقوم على التوحيد، ويُطوِّر بالاجتهاد والتجديد**؛ لأمر خطير وكبير يتجاوز قدرات الأفراد من العلماء والمختصين. إنه ممكن فقط، إذا ما انبرت له مؤسسات ذات رسالة يعمل فيها علماء يؤمنون بهذه الرسالة، ويعملون لإخراجها وتطبيقها في صورة أنظمة اجتماعية مناسبة.

إن تطوير نظام معرفي إسلامي (أصيل ومعاصر في آن واحدٍ) يشتمل على أربعة محاور وأركان متداخلة، ويتقوم بها في الوقت نفسه، هذه المحاور هي :

1- محور دراسة مناهج التعامل مع الوحي، (قرآناً وسنة).
2- محور دراسة المناهج المستخدمة في دراسة التراث والتاريخ وتدريسه، نقدها.
3- محور العمل على دراسة ونقد المناهج، والتجارب الغربية، والإنسانية الأخرى في المعرفة، وفي البناء الحضاري، وتقويمها ونقدها.
4- محور بناء **منهج اجتهادي، تجديدي، توحيدي**، لإقامة علوم وحضارة إسلامية إنسانية موحدة أصيلة ومعاصرة.

إن إعادة النظر في مناهج وطرق التعامل مع القرآن والسنة النبوية، من حيث التعلم والتعليم والتطبيق، تشكل المفتاح الرئيس والعامل الحاسم في بناء نظام معرفي وتربوي قادر على إعادة بناء الأمة الموصوفة بالخيرية والمكلفة بالشهادة، إذ إن الطابع الغالب على دراسة مناهج القرآن الكريم والسنة النبوية، هو الطابع التخصصي المحدود، الذي لا يستلهم القرآن الكريم والسنة النبوية في بناء منهجية إسلامية معاصرة للعلوم

الاجتماعية والإنسانية والطبيعية. فقد استسلم المسلمون وعلماؤهم لأستاذية الغرب ومناهجه في هذه العلوم، واكتفينا بتقديم النقد لمناهج الغرب بين الحين والآخر، ولم نبلغ بعد حد الاقتدار والجرأة على تطوير مناهج متكاملة بديلة. ومن جهة أخرى، تكاد تقتصر دراسات (علوم القرآن والسنة) على دراسات المتخصصين وفق تصنيفات وموضوعات بات الكثير منها لا يمت إلى واقع المسلمين وحاجاتهم بصلة، وما لم تشتمل المناهج الجديدة على خبرات تجعل من تعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة ثقافة وخلقاً للعلماء والمتعلمين، للعامة والخاصة على السواء، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية سيبقيان بعيدين عن توجيه الحياة، وفي معزل عن برامج تنمية المجتمع وتطويره.

فالمطلوب إذن صياغة مناهج وطرائق قادرة على تحويل تعاليم الوحي لتصبح مكونات أساسية في فكر جميع فئات المجتمع وثقافتهم وأخلاقهم، ويقتضي ذلك فيما يقتضيه تقليل التركيز على الحفظ الأصم، وزيادة الاهتمام بالفهم والتطبيق ابتداءً من سن الطفولة وحتى أعلى مراتب التخصص، كما يقتضي تخصيص جزء من المناهج غير يسير لدراسة الأوضاع والأنظمة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية القائمة وفهمها في ضوء القرآن والسنة، ومن جانب آخر تعميق فهم القرآن الكريم والسنة المشرفة في ضوء الأنظمة والأوضاع القائمة.

وعلى سبيل المثال فإن تدريس فقه الزكاة في معزل عن النظام الاقتصادي القائم وأشكال الثروة السائدة، وتقديرها، ثم دراسة أنظمة الضرائب المعمول به وما إلى ذلك من أنظمة وقوانين، سيكون نمطاً من أنماط الترف العلمي لا ينتج إلا (علماً) لا نفع ولا فائدة فيه.

ومن جهة أخرى، فإن هناك مشكلة التعامل مع التراث، إذ كثيراً ما يعد موازياً في منزلته لنص الوحي ذاته. ولعله من البديهي أن نقول: إنه يجب ألا يرفع أي فهم بشري لنصوص الوحي إلى منزلة النص نفسه، ولكن هذه الظاهرة شائعة عند المسلمين، عامتهم وخاصتهم على السواء، إذ تسود قناعة لدى الكثيرين، بأنه ما ترك الأولون للآخرين شيئاً، وكذلك يسود بين المسلمين فهم أنه لا يحق لأي إنسان توجيه أي نقد علمي لأي من كبار العلماء السابقين، ما لم يصل مثل هذا الناقد إلى مرتبة العالم السبق من العلم والاجتهاد. وقد

تعززت قناعات عند المسلمين بأن هذا من المستحيلات ليس على جمهور المسلمين فحسب، بل على المتخصصين من علمائهم المعاصرين كذلك.

أما علاقتنا مع الحضارة الغربية والمناهج العلمانية، وتبعيتنا المطلقة لها، فهي أوضح من أن تحتاج إلى دليل. وتتباعد مواقف المسلمين من الغرب بين إفراط وتفريط، وبين تبعية وتطفيف؛ فإما قبول دون تمحيص، وتصفية وتمييز؛ وإما رفض وإنكار مع جهل وتجاهل دون حصانة علمية، أو تقديم بديل متكامل قابل للانتشار والتطبيق.

إن بناء حضارة إسلامية للمستقبل، تنقذ الإنسانية مما آلت إليه تحت زعامة الحضارة الغربية العلمانية المعاصرة وقيادتها، لا يمكن أن يتم بالأنظمة المعرفية التراثية ولا بالأنظمة المعرفية العلمانية السائدة. فإنّ بناء حضارة إسلامية إنسانية للمستقبل يحتاج إلى نظام معرفي، يستفيد من إنجازات تراثنا العلمي ومن إنجازات الغرب العلمية وإنجازات الحضارات الأخرى، ولكنه يتجاوزها جميعها بعملية ثورية، لا تراكمية فحسب، فالإنسانية لا تسلم قيادها من حضارة إلى حضارة أخرى، لمجرد أن الحضارة الجديدة تضيف إنجازات كمية على سابقاتها، بل لا بد من تغييرات وإنجازات نوعية كبيرة وإن كانت قائمة على الأصول والعقائد نفسها.

وليس من العلم أو الحكمة أن يظن المسلمون أنهم مؤهلون لقيادة البشرية لمجرد إقامة الدليل على إفلاس الحضارة الغربية. لقد سبقهم إلى نقد الحضارة الغربية ومنجزاتها إلى درجة التنبؤ بسقوطها، علماء الغرب أنفسهم أمثال شبنجلر وألكسس كاريل وكثير غيرهما.

وما كتاب "**الإنسان: ذلك المجهول**" الذي نشره كاريل في أوائل هذا القرن إلا نوع من التبشير بسقوط الحضارة الغربية، وتحدٍّ لأولئك الذين يجرؤون على بناء حضارة جديدة قائمة على احترام إنسانية الإنسان، وعلى علوم توحيدية تدرس الإنسان بكليته الموحدة، لا على علوم تخصصية تفتت الإنسان وبيئته، ولا تقوى على فهمه وإسعاده.

يقول **ألكسس كاريل** في مقدمة هذا الكتاب ما ترجمته:

"إن هذا الكتاب قد كتب لأولئك الذين يمتلكون من الشجاعة ما يمكنهم من الفهم أنه ليس المطلوب والحاجة الملحة إلى تغييرات عقلية وفكرية وسياسية واجتماعية فحسب، ولكن الحاجة قائمة لإسقاط الحضارة الصناعية (الغربية)، وبزوغ حضارة أخرى بديلة تحقق تقدم الإنسانية... ليس هناك سبيل متاح لتقدم البشرية إلا طريق التنمية المتوازنة للطاقات الفيزيولوجية والعقلية والروحية للإنسان, إن إدراك الحقيقة الكلية وحده هو الذي سينقذ الإنسان المعاصر".[10]

فهل يملك علماء المسلمين ودعاقم المعاصرون من الشجاعة والبصيرة، ومن القدرة والإرادة، ومن العلم والحكمة، ما يؤهلهم إلى إحداث تغييرات ثورية وجذرية أصيلة في مناهج المعرفة والفكر والسياسة والاجتماع ونظمها، مما يعد شروطاً لازمة لبزوغ حضارة توحيدية بديلة عن الحضارة التفكيكية المادية السائدة؟

أهداف التنزيل ومناهج دراسته

إن ما يفترضه العلماء من أهداف للتنزيل، محاور رئيسة لموضوعاته يؤثر تأثيراً كبيراً في مناهج دراسة القرآن الكريم وتعليمه، ولعل من أكثر الأهداف شيوعاً وقبولاً، أن القرآن الكريم وكذلك **السنة المطهرة** هما المصدر الرئيس للأحكام والتشريع. ولقد كتبت مصنفات عديدة حول آيات الأحكام، ولا يتجاوز عدد آيات الأحكام، عند أكثر العلماء، خمسمائة آية، بل إن جلّهم يحصرونها في حوالي ثلاثمائة وخمسين آية.

إن مثل هذا التركيز على آيات الأحكام التي لا تتجاوز الـ8٪ من مجموع آيات القرآن الكريم على أقصى الاحتمالات، يعني في الواقع العملي تهميش بقية القرآن وجعله ثانوياً خاصة عند بعض الفقهاء. ومن الواضح خطورة التعامل مع 92٪ من آيات القرآن الكريم على أنها مجرد آيات للتلاوة والاعتبار، دون أي يكون لها موضع متميز في صياغة أنظمة المجتمع وبناء مؤسساته وتوليد ثقافته.

ومن جهة أخرى فقد ركز عدد لا يستهان به من العلماء على الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم باعتبار أنه معجزة الرسول الكريم الذي أُرسل في قوم، أخص خصائصهم البلاغة، وأقوى صفاتهم الفصاحة، ومع إن الله سبحانه وتعالى يصف هذا الكتاب المعجز بقوله ﴿ولقدْ يسّرْنا الْقُرْآن لِلذِّكْرِ فهلْ مِنْ مُدّكِرٍ﴾

---

10 انظر:
Alexis Carrel: Man: The Unknown, New York: Harper and Row, 1935, PP: XXV, XIV.

(القمر:17)، إلا أنه تعاقب على المسلمين أزمان، طوروا فيها طرائق ومناهج للتعامل مع القرآن جعلته عسيراً على فهم أكثر المسلمين، ووضع بعض علماء المسلمين شروطاً تعجيزية ترهيبية، اضطرت أكثر المسلمين، للابتعاد عن القرآن، وعد تلاوته للفهم والتطبيق باعتبار أن فهمه لا يستطيعه إلا من كان محيطاً باللغة العربية وبالناسخ والمنسوخ والعام والخاص، وأسباب النزول وغير ذلك من الشروط. وأدى هذا في واقع الحل، لا في ظاهر المقال، إلى ظهور طبقة من "رجال الدين" أسهمت في التعامل مع القرآن بلفظه ورسمه، لا بفهمه والالتزام بتعاليمه وأخلاقه، وهكذا أقيم حاجز كبير بين المسلمين والفهم السليم للقرآن الكريم باسم العلم والدين وهما من ذلك براء.

يقول الدكتور **طه جابر العلواني**: "إن عدداً من علماء المسلمين ولفترات طويلة اعتبروا القرآن في الأساس مصدراً لمعرفة تاريخ الأمم التي قص القرآن قصصها للاعتبار والإنذار، بالإضافة إلى ذلك فقد اعتبر القرآن الكريم مصدراً للمعلومات عن الآخرة وعن أحداثها الغيبية، وكذلك مصدراً للأحكام الفقهية. وفي الحقيقة فإن دراسات الأولين حول إعجاز القرآن تكاد تنحصر حول الأمور الثلاثة هذه كما تدل على ذلك كتابات **الرازي والباقلاني والجرجاني والقاضي عياض** وغيرهم".[11]

ولم ينج من مثل هذا الموقف عالم عظيم كالإمام الشاطبي –رحمه الله– الذي حاجّ وحذّر من محاولة فهم القرآن في ضوء المعارف الحديثة (الحديثة في عصره وهي قديمة الآن). وقد بنى **الشاطبي** موقفه هذا على أساس أن شريعة الإسلام نزلت في العرب الأميين، ولذلك فإن المنهج الصحيح لفهم القرآن يجب أن يقتصر على مناهجهم وطرائقهم في الفهم والتعبير. ويسوق حججه ضد توظيف القرآن في استكشاف العلوم الطبيعية ودراستها فيقول: "تجاوز كثير من الناس الحدود في استشهادهم بالقرآن. حيث أنهم زعموا أنه يشتمل على جميع العلوم الكونية بالإضافة إلى اللغويات والمنطق وعلم الكلام وغير ذلك، ولكن هذا على

---

11 هذا النص ترجمة من المرجع التالي باللغة الإنجليزية.

Taha J. Al-alwani and Imad Al-Din Khalil: The Quran and the Sunnah: The Time – Space Factor, Herndon, Virginia (U.S.A): IIIT, 1991, p14.

خلاف ما كان عليه فهم السابقين، فإن أسلافنا الأفاضل كانوا أكثر الناس علماً بالقرآن وعلومه وما يشتمل عليه. ولم يعهد منهم أنهم تكلموا في القرآن غير ما ثبت من أمره ونهيه ومن إخباره عن اليوم الآخر".[12]

ولكننا نزعم أن القرآن الكريم، على عكس ما تدل عليه تأكيدات هذا العالم العظيم، كتاب هداية ومعرفة للناس كافة، في كل الأماكن وفي كل العصور. إنه خاتم الكتب وبه خُتمتْ الرسالات إلى أن تقوم الساعة. فهو والحالة هذه لا يمكن أن يُحد فهمه وتقتصر علومه على علوم العرب وقت نزوله، أو علومهم وعلوم غيرهم في أي زمان ومكان آخر. نعم، إن الإحاطة باللغة العربية شرط ضروري لفهم القرآن فهماً صحيحاً، لكن هذا الشرط لا يمكن أن يُعد كافياً للفهم التام والكامل والنهائي. وإن أي فهم بشري للقرآن الكريم لا يمكن أن نُعدّه أكثر من ظل لحقائق القرآن، وكما يتحدد ظل أي شيء بزاوية النور الذي يسلط على ذلك الشيء وكثافته، فكذلك محاولات فهم البشر للقرآن الكريم، تتشكل بأفهامهم وثقافتهم ومعارفهم المحدودة بحدود إنسانيتهم والمتكيفة بمعارف أزمانهم.

وسنعرض الآن تصنيفات بعض العلماء حول أهداف التنزيل وعلوم القرآن:

1– الفخر الرازي (544ه/1706م – 606ه/1763م).

يقرر الفخر الرازي في تفسيره **مفاتيح الغيب** أن "مدار القرآن على أربعة مسائل: الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر وهي مقصود القرآن كله".[13]

2– شاه ولي الله (1114ه/1706م – 1176ه/1763م).

يقول العلامة شاه ولي الله في رسالته **الفوز الكبير في أصول التفسير** ما يأتي :

"ليعلم أن معاني القرآن المنطوقة لا تخرج عن خمسة علوم هي:

علم الأحكام: وتفصيل هذا العلم منوط بذمة الفقهي.

---

12 المصدر نفسه، ص19.

13 أورده زياد محمد الدغامين: سورة العنكبوت: دراسة وتفسير، رسالة دكتوراه غير منشورة، (الجامعة الوطنية الماليزية، 1991م)، ص113.

وعلم المخاصمة: والرد على الفرق الضالة، وتبيان هذا العلم منوط بذمة المتكلم.

وعلم التذكير بآلاء الله: من بيان خلق السموات والأرض وإلهام العباد ما ينبغي لهم، ومن بيان صفات الله سبحانه الكاملة.

وعلم التذكير بأيام الله: يعني بيان الوقائع التي أوجدها الله سبحانه وتعالى من جنس تنعيم المطيعين وتعذيب المجرمين.

وعلم التذكير بالموت وما بعده: من الحشر والنشر، والحساب والميزان، والجنة والنار، وحفظ تفاصيل هذه العلوم وإلحاق الأحاديث والآثار المناسبة لها وظيفة المذكر والواعظ".[14]

3- الإمام محمد عبده: (1266ه/1849م - 1323ه/1905م).

يقرر الإمام محمد عبده أن ما أُنْزل القرآن لأجله أمور هي:

1) **التوحيد** لأن الناس كانوا وثنيين وإن كان بعضهم يدع التوحيد.

2) **وعد** من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة.

3) **العبادة** التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس.

4) **بيان** سبيل السعادة وكيفية السير فيها الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة.

5) **قصص** من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر.[15]

4- أبو الأعلى المودودي: (1321ه/1903م -1400ه/1979م).

---

14 شاه ولي الله (ولي الله بن عبد الرحمن): الفوز الكبير في أصول التفسير، منشور كمقدمة لكتاب المعجهم المفهرس لآيات القرآن الكريم، عمل ووضع محمد منير الدمشقي، بيروت: دار القلم، د.ت، ص8.

15 الشيخ محمد عبده: دروس من القرآن، بيروت: دار إحياء العلوم، 1984، ص25.

يؤكد العلامة أبو الأعلى المودودي أنّ مدار القرآن كله على مصطلحات أربعة هي:

1- الإله. **2- الرب.** **3- الدين.** **4- العبادة.**

ويجزم أن هذه المصطلحات تشكل المحاور التي تدور حولها رسالة القرآن، وكل ما في القرآن ليس له أي غرض آخر إلا توضيح وشرح واحد من هذه المصطلحات أو أكثر.[16]

5- محمد الغزالي: (**1335هـ/1917م – 1416هـ/1996م**).

خصص الشيخ **محمد الغزالي** كتاباً خاصاً تناول فيه أهداف القرآن سماه المحاور **الخمسة للقرآن الكريم** ويقرر في هذا الكتاب –رحمه الله– أن رسالة القرآن وأهدافه تدور على خمسة محاور هي:[17]

1- الله الواحد. 2- الكون الدال على خالقه. 3- القصص القرآني . 4- المعاد والحساب. 5- التربية والتشريع.

ماذا نلاحظ عند التدقيق في الموضوعات والأهداف التي خصّها العلماء السالف ذكرهم للقرآن الكريم؟ إن كلاً من هذه الموضوعات، لا شك، تقوم عليه دلالات من آي القرآن الكريم، وكذلك فإن عدداً آخر من العلماء ذكر أهدافاً وموضوعات غير ما أوردناه سابقاً، ولكننا للاختصار آثرنا الاكتفاء بالأمثلة التي أوردنا لأنها تكفي للتدليل على ما نحن بصدده من أمور هي:

1- إن تنوع إعجاز القرآن وما يدل عليه من معارف وعلوم لا يستوعبه علم عالم ولا جيل من العلماء، فهذه الإسهامات والإشارات من العلماء تمثل جواهر متناثرة مستخرجة من كنز لا تنفد جواهره، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

2- إن صياغة كل واحد من هؤلاء العلماء وغيرهم تتأثر بمخزونه المعرفي، وبنيانه الثقافي، وما يتأثر به من أوضاع الزمان والمكان التي يعيش فيها فضلاً عن منهاجه في البحث والنظر.

---

16 راجع كتابه: المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم، الكويت: دار القلم، 1971م.

17 الشيخ محمد الغزالي: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، القاهرة: دار الصحوة، 1992م.

3- إن إسهامات العلماء والدراسين، على تنوعها وعلى ما يبدو فيها من بعض الاختلافات، لا يلغي بعضها بعضاً ولا ينتقص من قيمتها، بل إنها تشكل تنوعاً وتطويراً ضرورياً، لكي يبقى القرآن الكريم حياً في النفوس، هادياً للأجيال على مرّ العصور لفهم آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، ولتحقيق جدية أداء الإنسان وفاعليته وخلافته في الحياة والوجود.

4- إنه من المفيد، بل من الضروري، أن لا تجمد أفهام المسلمين عند جيل من العلماء مهما عظم، بل ومن واجب العلماء، المختصين في العلوم المختلفة، أن يطوروا مناهج مناسبة لعلومهم ترتكز على تعاليم القرآن والتفاعل معه واستلهام نظامه المعرفي. ولعله يصبح من الممكن فيما بعد ربط هذه المناهج أو توحيدها في نظام أو إطار واحد، يعكس فكرة التوحيد من جهة، ويشتمل على خصائص الثبات والمرونة والتطور من جهة أخرى.

إن ما سنقدمه في الصفحات التالية، نورده في هذا الإطار إسهاماً متواضعاً في سبيل جعل القرآن الكريم المصدر الرئيس لصباغة مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة، ولتقريب أو إزالة الفجوة بين هذه المناهج وما اتفق على تسميته بالعلوم الشرعية من جهة أخرى.

نظرة أخرى في أهداف التنزيل والتفريق بين المكي والمدني

يجمع المسلمون عامتهم وخاصتهم، على مرّ العصور، وعلى اختلاف ثقافاتهم ولغاتهم، على أن عقيدة التوحيد وتطهير الناس من الشرك هو الهدف الأعلى لرسالة القرآن بل لرسالات الأنبياء جميعاً: ﴿وما أُمِرُوا إِلّا لِيعْبُدُوا الله مُخْلِصِين لهُ الدِّين حُنفاء ويُقِيمُوا الصّلاة ويُؤْتُوا الزّكاة وذلِك دِينُ الْقيِّمةِ﴾ (البينة:5).

ولقد استوعب رسالة الإسلام وهدفها أولئك النفر من الصحابة والتابعين على أفضل وجه، مما مكّن واحد منهم أن يجيب رستم على سؤاله: ماذا جاء بكم؟ قائلاً على البديهة: "**جئنا نخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة**".[18]

[18] هذا القول منسوب إلى ربعي بن عامر عندما قابل وفد المسلمين رستم.

أرأيت أروع من هذا الفهم والتلخيص والذي أكد على التوحيد ولم ينس الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية على حد سواء؟!

وقد اعتاد علماء المسلمين أن يميزوا بين موضوعات آي القرآن الكريم الذي نزل في العهد المكي، وذلك الذي نزل في العهد المدني، وعلى أن واحداً من أوجه الاختلاف بين العهدين، هو تأكيدهم أن القرآن في العهد المكي ركز على بيان عقيدة التوحيد، وتثبيت أركان الإيمان، ومحاربة الشرك وما يقود إليه، في حين أن التشريع وما يتصل به من تعاليم متعلقة ببناء المجتمع والدولة كان من مهمات التنزيل في العهد المدني، إذ إنه لم يكن للمسلمين في مكة دولة تحتاج إلى قوانين وتشريعات وتفصيلات في أمور العلاقات، والحقوق والواجبات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. عن هذا التركيز على اختلاف موضوعات القرآن المكي والمدني، على وجاهته، أدى إلى قلة الانتباه إلى ما يجمع بين العهدين من توحيد في الهدف مما هو لازم للمسلمين في كل عهد وعلى مرّ العصور. ولقد تنبه إلى هذا أحد الباحثين المعاصرين إذ يقول:

"فالمفاضلة والتمييز بين موضوعات القرآن المكي وموضوعات القرآن المدني مفاضلة غير مطلقة وغير قطعية، بل يبدوا لنا -بخاصة بعد اكتمال الكتاب المنزل- أن القرآن المكي والمدني يتداخلان في موضوعاتهما ويتكاملان في عرض المعاني والاحتجاج لها، بحيث لا يستطيع التباين في أماكن النزول وزمانه أن يفصل بينهما، وأن ما نزل من القرآن مكيه ومدنيه والسفري منه والحضري والصيفي والشتائي، كله يشكل نسيجاً واحداً حتى يكاد المرء يعجز عن انتزاع بعض الآيات من موضوعها العضوي في داخل السورة وإرجاعها لموقعها الجغرافي والتاريخي دون تشويه الصياغة والإخلال بالمعنى. ولقد لوحظت هذه الخاصية التأليفية حتى عُدّت بذاتها وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني".[19]

وهناك أمر عظيم نزعم أنه قلّ الانتباه إليه وهو أن **القرآن الكريم** نزل فيما نزل لينشئ **نظاماً معرفياً** لم يعهده العرب، ولا غيرهم، وقت نزول القرآن، كما أن هذا النظام المعرفي القرآني في من خصائص الثبات والتطور ما يجعله النظام الوحيد، القادر على ربط البشرية بخالقها من جهة، وتمكينها من اكتشاف الآيات

---

19 التيجاني عبد القادر حامد: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، عمان (الأردن): دار البشير، 1995، ص20. وهذا الرأي قد سبق أن ذهب إليه الدكتور محمد عبد الله دراز (دراسات إسلامية، الكويت: دار القلم، 1973م، ص17) كما أشار إلى ذلك الدكتور التيجاني نفسه.

الكونية وتسخيرها من جهة أخرى لتكون الأجيال المتعاقبة قادرة على القيام بواجبات الإعمار والاستخلاف، باستخدام أنواع من العلوم والمعارف المتجددة والمتطورة على الدوام. وبلغة أخرى فإن القرآن الكريم، يحتوي على فرائض معرفية، فضلاً عن الفرائض العبادية، وأحكام العبادات والمعاملات.

إن هذا النظام المعرفي الذي جاء القرآن ليقيمه، يتناول الأبعاد الرئيسة لأي نظام معرفي، ألا وهي:

1- تحديد الغاية والهدف من العلم والمعرفة.

2- تحديد مصادرة العلم والمعرفة.

3- استقصاء أنواع العلوم والمعارف، والتعامل معها ضمن أولويات العقيدة وحاجات الأمة في الزمان والمكان.

4- التوجيه إلى مناهج الكشف عن العلوم والمعارف وسبل اكتسابها.

5- تحديد وتطوير الوسائل الضرورية والمناسبة لاستخدامها في التوصل إلى أنواع العلوم والمعارف المختلفة.

6- تطوير التطبيقات اللازمة لما يكتسب من العلوم والمعارف.

وليست القضية هنا في إقامة الدليل عن أهمية العلم في رسالة القرآن، والمكانة العالية الرفيعة التي خصّها الإسلام للعلم، وما يتصل به، وكل من يتصل به من المعلمين والمتعلمين، وكل طريق يؤدي إلى العلم، فإن في ذلك كتباً وتصنيفات ومقالات تكاد لا تحصى، ويكفي في هذا المقام أن نتذكر أن الحكمة من تكريم الله للإنسان باستخلافه، على الرغم من أنه يسفك الدماء، ويفسد في الأرض، هي أن الله علّمه الأسماء كلها (البقرة: 30-33).

وفي كتاب العلم من **إحياء علوم الدين** لأبي حامد الغزالي ما يأتي:

"سئل **ابن المبارك** منْ الناس؟ فقال العلماء. قيل فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قيل فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين، ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم

هي العلم، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله وليس ذلك بقوة شخصه... ولا بعظمته... ولا بشجاعته... ولا بأكله... بل لم يخلق إلا للعلم".[20]

نقول ليست القضية هنا، إضافة أدلة جديدة على مكانة العلم والعلماء والمتعلمين في الإسلام، بل هي التنبيه على أن القرآن، مكيِّه ومدنيِّه، أنشأ نظاماً معرفياً شاملاً متكاملاً، غفل المسلمون عن اكتشافه والعمل بمقتضاه، ثم التنويه ببعض مكونات هذا النظام وميزاته ومناهجه ووسائله. ولنبدأ الآن بعرض مختصر لما ورد في القرآن الكريم حول هذا الموضوع ولنبدأ بما بدأ الله عز وجل به.

أول ما نزل من القرآن الكريم على الأصح، قوله تعالى في أوائل سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ ربِّك الّذِي خلق. خلق الْإِنسان مِنْ علقٍ. اقْرأْ وربُّك الْأكْرمُ. الّذِي علّم بِالْقلمِ. علّم الْإِنسان ما لمْ يعْلمْ. كلّا إِنّ الْإِنسان ليطْغى. أنْ رآهُ اسْتغْنى. إِنّ إِلى ربِّك الرُّجْعى﴾ (العلق: 1-8).

إن هذه الآيات فيما نرى تؤسس نظاماً للمعرفة مفتاحه العام والرئيس (القراءة)، وليست هي القراءة المعهودة مما يمثله النطق بكلمات ومفردات، وهو ما فهمه الرسول الكريم عندما ردّ بقوله (ما أنا بقارئ) إذ كان الرسول **صلى الله عليه وسلم** أُمّياً، بل إنها قراءة من نوع جديد وبموضوعات جديدة وبمنهاج جديد.

أما كونها من نوع جديد فيتجلّى ذلك في قوله تعالى: ﴿اقْرأْ بِاسْمِ ربِّك الّذِي خلق﴾، وقوله تعالى: ﴿علّم الْإِنسان ما لمْ يعْلمْ﴾؛ فالشق الأول من هذه القراءة هو التلقي من الوحي مما لا يستطيع الإنسان تحصيله بالقراءة والكتابة المعهودة. أما جدة موضوعاتها، وهو ما يثير الدهشة والعجب، فهي أن تبدأ بقراءة الخلق، وهي قراءة كي تكون صحيحة تحتاج إلى علوم متخصصة متقدمة، ثم هي قراءة كذلك في الظواهر النفسية والاجتماعية تتجلى في قوله تعالى: ﴿كلّا إِنّ الْإِنسان ليطْغى، أنْ رآهُ اسْتغْنى﴾، فالطغيان على مستوى الفرد والجماعة أساسه الشعور بالاكتفاء الذاتي وعدم الحاجة إلى الغير (الاستغناء)، أي الغرور بالقوة والموارد الذاتية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قال إِنّما أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِي أولمْ يعْلمْ أنّ الله قدْ أهْلك مِنْ قبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ منْ هُو أشدُّ مِنْهُ قُوّةً وأكْثرُ جمْعًا ولا يُسْألُ عنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُون﴾ (القصص: 78)، وقوله عز

20 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة، ب.ت، ج1، ص7.

وجل: ﴿فإذا مسّ الْإِنْسان ضُرٌّ دعانا ثُمّ إِذا خوّلْناهُ نِعْمةً مِنّا قال إِنّما أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ بلْ هِي فِتْنةٌ ولكِنّ أكْثرهُمْ لا يعْلمُون﴾ (الزمر 49).

فالنظام المعرفي القرآني إذن يقوم على الجمع بين قراءتين متلازمتين متكاملتين، هما قراءة كتاب الله المسطور (الوحي) وقراءة كتابه المنظور (الكون)، قراءة الخبر وقراءة المختبر. ولعل مما يساعدنا على تصور الانقلاب العظيم الذي أحدثه هذا المنهاج القرآني في المعرفة ومفاتيحها ومصادرها أن نتخيل أوضاع المجتمع الجاهلي في القرن السادس وأوائل القرن السابع بعد ميلاد المسيح (عليه السلام)، ثم نحاول أن نقرر محتوى الخطاب الإصلاحي الذي يمكن أن يبدأ به أي مصلح دعوته لمثل ذلك المجتمع. لعل القارئ يوافقني على القول: إنه في المنظور والاجتهاد البشريين لا يمكن لبشر أن يبدأ دعوته الإصلاحية التغييرية بمثل ما بدأ به الوحي على رسول الله محمد **صلى الله عليه وسلم** :﴿اقْرأْ بِاسْمِ ربِّك الّذِي خلق .خلق الْإِنسان مِنْ علقٍ . اقْرأْ وربُّك الْأكْرمُ الّذِي علّم بِالْقلمِ . علّم الْإِنسان ما لمْ يعْلمْ﴾. فلو كان التوحيد مستقلاً عن النظام المعرفي، بحسبانه وحده محور الرسالة الجديدة، لكان من الأولى، في اجتهادنا البشري المحدود، (ونعوذ بالله من التطاول عليه)، أن تُنزّل سور كسور الإخلاص والكافرون قبل سور **التكوير والأعلى والليل والفجر والضحى،** وغيرها مما هو سابق في التنزيل، وكل هذه السور بطبيعة الحال مكية، ولعل في أسمائها ما ينبئ بأن النظام المعرفي القرآني، يجعل الكون وما فيه من آيات مداراً رئيساً لما يليق بالمسلمين خاصة، وبالناس عامة، أن يعملوا على اكتشافه وفهم أسراره وقوانينه وسننه، باعتبار ذلك شرطاً لازماً لتمكينهم من تسخيره، وإعماره والقيام بمسؤولية الخلافة فيه. وسنعود مرة أخرى إلى ما يمكن الاستدلال عليه من أسماء سور القرآن الكريم مما له علاقة بموضوعنا هذا.

ولننتقل الآن إلى مزيد من النظر في السور المكية وما تحتويه من موضوعات ومناهج. عدد السور المكية ست وثمانون سورة تشكل (75.4٪) من مجموع سور القرآن الكريم، ومجموع آيات هذه السور (4613) آية تشكل حوالي (73.8٪) من مجموع الآيات القرآنية، بينما مجموع السور المدنية (28) سورة مجموع آياتها حوالي (1636) آية، أي أن القرآن المدني يشكل (24.6٪) من السور و (26.2٪) من مجموع الآيات.

وسنأخذ مثالاً من السور المكية، ليس فريداً في نوعه ولا شاذاً في موضوعه، وهو من سورة الروم التي نزلت في حوالي منتصف العهد المكي (في السنة السادسة أو السابعة قبل الهجرة). وقد لا يكون إيراد جميع آيات السورة الستين في هذا السياق ضرورياً، ولذلك سنكتفي بإيراد آيات قليلة مع النصيحة بإعادة قراءة السورة ودراستها لكل راغب بمزيد من التمحيص:

قال الله تعالى: ﴿الم، غُلِبتْ الرُّومُ، فِي أدْنى الْأرْضِ وهُمْ مِنْ بعْدِ غلبِهِمْ سيغْلِبُون، فِي بِضْعِ سِنِين لِلّهِ الْأمْرُ مِنْ قبْلُ ومِنْ بعْدُ ويوْمئِذٍ يفْرحُ الْمُؤْمِنُون، بِنصْرِ اللّهِ ينصُرُ منْ يشاءُ وهُو الْعزِيزُ الرّحِيمُ، وعْد اللّهِ لا يُخْلِفُ اللّهُ وعْدهُ ولكِنّ أكْثر النّاسِ لا يعْلمُون، يعْلمُون ظاهِرًا مِنْ الْحياةِ الدُّنْيا وهُمْ عنْ الْآخِرةِ هُمْ غافِلُون أولمْ يتفكّرُوا فِي أنفُسِهِمْ ما خلق اللّهُ السّماواتِ والْأرْض وما بيْنهُما إِلّا بِالْحقِّ وأجلٍ مُسمًّى وإِنّ كثِيرًا مِنْ النّاسِ بِلِقاءِ ربِّهِمْ لكافِرُون، أولمْ يسِيرُوا فِي الْأرْضِ فينظُرُوا كيْف كان عاقِبةُ الّذِين مِنْ قبْلِهِمْ كانُوا أشدّ مِنْهُمْ قُوّةً وأثارُوا الْأرْض وعمرُوها أكْثر مِمّا عمرُوها وجاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبيِّناتِ فما كان اللّهُ لِيظْلِمهُمْ ولكِنْ كانُوا أنفُسهُمْ يظْلِمُون﴾ (الروم: 1-9).

ثم قال سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحيّ مِنْ الْميِّتِ ويُخْرِجُ الْميِّت مِنْ الْحيِّ ويُحْيِي الْأرْض بعْد موْتِها وكذلِك تُخْرجُون، ومِنْ آياتِهِ أنْ خلقكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمّ إِذا أنْتُمْ بشرٌ تنتشِرُون ومِنْ آياتِهِ أنْ خلق لكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أزْواجًا لِتسْكُنُوا إِليْها وجعل بيْنكُمْ مودّةً ورحْمةً إِنّ فِي ذلِك لآياتٍ لِقوْمٍ يتفكّرُون، ومِنْ آياتِهِ خلْقُ السّماواتِ والْأرْضِ واخْتِلافُ ألْسِنتِكُمْ وألْوانِكُمْ إِنّ فِي ذلِك لآياتٍ لِلْعالِمِين، ومِنْ آياتِهِ منامُكُمْ بِاللّيْلِ والنّهارِ وابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فضْلِهِ إِنّ فِي ذلِك لآياتٍ لِقوْمٍ يسْمعُون، ومِنْ آياتِهِ يُرِيكُمْ الْبرْق خوْفًا وطمعًا ويُنزِّلُ مِنْ السّماءِ ماءً ويُنزِّلُ مِنْ السّماءِ ماءً فيُحْيِي بِهِ الْأرْض بعْد موْتِها إِنّ فِي ذلِك لآياتٍ لِقوْمٍ يعْقِلُون، ومِنْ آياتِهِ أنْ تقُوم السّماءُ والْأرْضُ بِأمْرِهِ ثُمّ إِذا دعاكُمْ دعْوةً مِنْ الْأرْضِ إِذا أنْتُمْ تخْرُجُون، ولهُ منْ فِي السّماواتِ والْأرْضِ كُلٌّ لهُ قانِتُون﴾ (الروم: 19-26).

ثم قال سبحانه: ﴿ولقدْ ضربْنا لِلنّاسِ فِي هذا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مثلٍ ولئِنْ جِئْتهُمْ بِآيةٍ ليقُولنّ الّذِين كفرُوا إِنْ أنْتُمْ إِلّا مُبْطِلُون، كذلِك يطْبعُ اللّهُ على قُلُوبِ الّذِين لا يعْلمُون، فاصْبِرْ إِنّ وعْد اللّهِ حقٌّ ولا يسْتخِفّنّك الّذِين لا يُوقِنُون﴾ (الروم: 58-60).

ونظرة عابرة –دع عنك النظرة المتأنية المتدبرة– تدلنا على أنه من بين موضوعات هذه السورة المكية ما يأتي:

1- الصراع بين القوى الكبرى وتداول الغلبة.

2- التفريق بين العلم السطحي – ﴿يعْلمُون ظاهِراً مِن الْحياةِ﴾ (الروم: 7)– والعلم الحقيقي.

3- ترابط العلم والإيمان: ﴿أولمْ يتفكّرُوا فِي أنفُسِهِمْ ما خلق اللّهُ السّماواتِ والْأرْض وما بيْنهُما إِلّا بِالْحقِّ وأجلٍ مُسمًّى﴾ (الروم: 8).

4- ضرورة السير والنظر، بالمعنى القرآني، لتعلم سنن قيام الحضارات والممالك وانهيارها.

5- علوم الآفاق والأنفس التي تحتاج إلى أدوات التعلم ووسائله من السمع والبصر والتفكر والتعقل... إلخ.

6- إن جميع الأمثال لتعليم واكتساب المعرفة التي تقود إلى الإيمان والقنوت قد جاء بها القرآن.

ولعلنا في هذا المقام نستفيد في فهم هذه الدلالات مما كتبه الشهيد **سيد قطب** في مقدمة تفسيره لهذه السورة إذ يقول:

"نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين، غلبة يفرح لها المؤمنون الذين يودون انتصار ملّة الإيمان من كل دين، ولكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد، ولا في حدود ذلك الحادث، إنما كانت هذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد ولآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت. وليصلهم بالكون كله... وليصل بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها... ثم يطوف بهم في مشاهد الكون وفي أغوار النفس وفي أحوال البشر وفي عجائب الفِطِر، فإذا هم في ذلك المحيط الهائل الضخم يطلعون على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها وتوسع آمادها وأهدافها وتخرجهم من تلك العزلة

الضيقة، عزلة المكان والزمان والحادث إلى فسحة الكون كله، ماضيه وحاضره ومستقبله، وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه".[21]

ونحن في هذا المقام نتساءل: هل يمكن أن يخرج المسلمون من عزلة الزمان والمكان والحادث، ليطلعوا على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها، وليكتشفوا بهذه المعارف نواميس الكون وروابطه، بالقراءة التقليدية المعهودة للقرآن الكريم؟ ألا يتطلب مثل هذا الأمر أنواعاً من العلوم الكونية والاجتماعية ومناهج لا يستطيعها إلا المتخصصون المجددون؟ وذلك يعني بالضرورة عدم الاقتصار على ما ورثه المسلمون من تصنيفات للعلوم ومناهج للدراسة؛ أجل إن نظام (القراءة) القرآني بعيد كل البعد عمّا نعهده الآن من التغني بآيات القرآن الكريم بالألسنة دون الأفئدة، وبالحناجر لا بالقلوب، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّما يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلماء) (فاطر:28).

مكانة السير والنظر في القرآن الكريم ونظامه المعرفي

لا يملك القارئ للقرآن الكريم، المتدبر في آياته، إلا أن يلحظ تأكيداً متكرراً وتوجيهاً مباشراً للسير والنظر، وأهميتهما في اكتشاف آيات الله في خلقه وتفهمها، وفي سنن التدافع والتداول، وسنن الصعود والاندثار. وليت بعض الدارسين الجادين يوجهون عنايتهم لاكتشاف واستخلاص نظرية **السير والنظر** واستخلاصها من القرآن الكريم، لتكون لبنة مهمة في بناء النظام المعرفي القرآني، وليستبين المسلم أن السير المطلوب القيام به في القرآن الكريم، ليس هو سير المكبّ على وجهه، وليس النظر المطلوب هو نظر البصر المجرد من البصيرة. ولقد ورد لفظا **السير والنظر** مجتمعيْن أو منفصليْن في أكثر من خمسين آية قرآنية، ثمانية منها فقط وردت في سور مدنية والباقي منها في سور مكية، وفي القرآن الكريم ما يقرب من ثلاثمائة وستين آية تستثير في الإنسان دواعي التدبر والتفكر والتبصر والتعقل والتأمل، بحيث بنى المتكلمون عليها لِتُعاضِد

---

[21] سيد قطب: في ظلال القرآن، الطبعة الأولى، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت، ج21، ص22.

معانيها قاعدتهم المشهورة: "**إن أول الواجبات الدينية المفروضة على المسلم النظر**"، حتى ذهب عامتهم إلى القول: "**ليس مؤمناً من لم يستدل**".[22] وفيما يلي أمثلة قليلة لهذه الآيات:

1- ﴿فلْينظُرْ الْإِنسانُ مِمّ خُلِق، خُلِق مِنْ ماءٍ دافِقٍ، يخْرُجُ مِنْ بيْنِ الصُّلْبِ والتّرائِبِ﴾ (الطارق: 5-7).

2- ﴿أفلا ينْظُرُون إِلى الْإِبِلِ كيْف خُلِقتْ، وإِلى السّماءِ كيْف رُفِعتْ، وإِلى الْجِبالِ كيْف نُصِبتْ، وإِلى الْأرْضِ كيْف سُطِحتْ﴾ (الغاشية: 17-20).

3- ﴿أو لمْ يسِيرُوا فِي الْأرْضِ فينظُرُوا كيْف كان عاقِبةُ الّذِين كانُوا مِنْ قبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أشدّ مِنْهُمْ قُوّةً وآثارًا فِي الْأرْضِ فأخذهُمْ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وما كان لهُمْ مِنْ اللهِ مِنْ واقٍ . ذلِك بِأنّهُمْ كانتْ تأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبيِّناتِ فكفرُوا فأخذهُمْ اللهُ إِنّهُ قوِيٌّ شدِيدُ الْعِقابِ﴾ (غافر:21-22).

إن هذه الآيات القليلة وحدها، كافية الدلالة على أن موضوعاتها جامعة شاملة، فهي تشمل النفس والخلق والظواهر الطبيعية والأنظمة الكونية والسنن التاريخية على حد سواء.

ومما يدل على تنوع النظام المعرفي القرآني وشموله أسماء القرآن الكريم حيث نلاحظ أن هذه الأسماء أكثر ما تشتمل على أصناف أربعة:

1- **الظواهر الإنسانية والاجتماعية**: وهناك أكثر من ستٍّ وعشرين سورة تدل أسماؤها على هذه الظواهر مثل: التوبة، الحج، الأحزاب، الشورى، المجادلة، الصف، المنافقون، الطلاق، الهمزة، التكاثر، المطففين... وغيرها.

2- **الظواهر والآيات الكونية: وهناك** أكثر من اثنتين وعشرين سورة تدل أسماؤها على هذه الظواهر مثل: الرعد، النور، الدخان، النجم، القمر، التكوير، الانفطار، البروج، الزلزلة... وغيرها.

---

22 عرفان عبدالحميد فتاح: "خصائص المنهج العلمي ومقارباته في القرآن الكريم"، التجديد (مجلة علمية فصلية محكمة تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا)، السنة الأولى، العدد الأول، يناير، 1997، ص31.

3- **الأقوام والأمم: وهناك أكثر** من أربعة عشر سورة تدل أسماؤها على هذه الموضوعات مثل: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، مريم، سبأ، الروم، قريش... وغيرها.

4- **أسماء الحيوانات وما يتعلق بها**: مثل: البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، الفيل... وغيرها.

ولعل في هذا دليلاً على أن موضوعات القرآن ومحاوره تتعلق بالإنسان فرداً ومجتمعاً، وبالكون وما فيه من عجائب خلق الله وآياته، والتاريخ وما فيه من دروس وعبر: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حتّى يتبيّن لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أولَمْ يكْفِ بِربِّك أنّهُ على كُلِّ شيْءٍ شهِيدٌ﴾ (فصلت: 53).

ولقد دأب كثير من المفسرين على اعتبار هذه الآيات وأمثالها، إما تدليلاً على قدرة الله ووحدانيته، أو أنها وردت للترهيب والاعتبار. والواقع أن تكرار لفظ "**كيف**" في آيات السير والنظر، يدل على أن المطلوب هو أكثر وأعمق من النظر العابر، فمعرفة "كيف" تتطلب نظراً متخصصاً وجهوداً متواصلة، لأن مجرد رؤية الظاهرة الكونية أو الاجتماعية شيء يستطيعه معظم الناس، جاهلهم وعالمهم، كافرهم ومؤمنهم على السواء، أما اكتشاف **كيف** تكونت هذه الظاهرة الاجتماعية، أو الآية الكونية، فإنه لا يستطيعه إلا العلماء، وأما الاعتبار من هذا العلم، والغاية منهج فلا يحوزهما إلا العلماء المؤمنون.

ومن هنا فإننا نلحظ أن معظم الناس، إن لم يكن كلهم، يرون الأمراض بأنواعها بل يصفون أعراضها، أما من يستطيع اكتشاف ومعرفة كيف تجيء هذه الأمراض ومن ثمّ كيف يمكن الوقاية منها، وعلاجها، فإن ذلك لا يستطيعه إلا الباحثون المتخصصون، وكثير منها يشاهده كل الناس، ولكن لا يستطيع تفسير (كيف) تحصل هذه الظواهر تفسيراً صحيحاً إلا العلماء.

إننا نرى في الآيات السابقة، لا بل في جميع آيات القرآن وسوره، دليلاً على ضرورة أن يقيم المسلمون نظاماً معرفياً يصل ويؤلف بين العلوم الاجتماعية والإنسانية من جهة والعلوم الكونية من جهة أخرى. ولا أظنه من العلم في شيء ما نشأ مؤخراً بين عدد من المسلمين من فرحتهم بتلقط أخبار الاكتشافات العلمية التي يقوم بها علماء الاكتشافات يستلها على عجل من القرآن الكريم، مدللاً بذلك في زعمه على إعجاز

القرآن الكريم، وهو لا يدري أنه في مثل هذه المحاولات، يقيم الدليل على عجز المسلمين أكثر مما يقدم برهاناً على إعجاز القرآن الكريم.

ولو نظرنا في آية واحدة فقط من الآيات السالفة الذكر، لرأينا إعجاز القرآن حقاً وما يتطلبه الإيمان بهذا الإعجاز من جهد علمي من قبل المؤمنين، لا انتظار ما يكتشفه غيرهم، ثم التهليل له والتدليل به على عظمة القرآن والإسلام، وهي قوله تعالى: ﴿أفلا يَنْظُرُون إِلى الْإِبِلِ كَيْف خُلِقتْ . وإِلى السّماءِ كَيْف رُفِعتْ، وإِلى الْجِبالِ كَيْف نُصِبت، وإِلى الْأَرْضِ كَيْف سُطِحتْ﴾ (الغاشية: 17-20).

فإن النظر العادي إلى الإبل والتعجب من خلقها يقدر عليه البدوي الأمي، كما يقدر عليه المتعلم الحضري، أما النظر في كيف خلقت الإبل فلا يقدر عليه الأمي، كما لا يستطيع اللغوي أن ينظر إلى السماء كيف نصبت، ولا المتكلم إلى الأرض كيف سطحت. أجل لا يستطيع مثل هؤلاء العلماء أن يستجيبوا لمثل هذه التوجيه القرآني، على أكمل وجه، إلا إذا جمعوا إلى علومهم علوماً أخرى، مثل علوم الأحياء والفلك والجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا وغيرها من العلوم المتطورة باستمرار.

مداخلة بين النظام المعرفي في القرآن والمنهج الوضعي العلماني

حاولنا في الصفحات الماضية أن نبيّن أن القرآن الكريم جاء بنظام معرفي توحيدي كلّي وشمولي، ليربط بين عقل الإنسان وحواسه، وما يمكن له اكتشافهُ وتعلمه في عالم الشهادة، وبين روحه ونفسه، وما يلزم أن تؤمن به وتتعلمه فيما لا يمكن للعقل والحواس أن تدركه. نظام معرفي يجمع بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وبين علوم الخبر وعلوم المختبر؛ نظام معرفي يجعل المعرفة بالحقائق والمعلومات طريقاً لتحقيق القيم العليا والغايات. ولقد أشرنا إلى أن المناهج التجزيئية التفكيكية، وإن أدت إلى تطوير علوم متخصصة، إلا أنها تقصر عن أن تجعل من القرآن وتعاليمه وهدايته وأنظمته، خُلقاً للبشر وأساساً يبنون عليه أنظمة حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ونود في هذا الجزء من البحث أن نجري مداخلة ما بين النظام الوضعي العلماني السائد والنظام المعرفي القرآني.

لقد كان المنهج العلمي ذا اتجاهين، يمثل كل اتجاه عالم مشهور، الاتجاه الأول مثله الفيلسوف الفرنسي ديكارت، الذي أراد أن يكون السير العلمي بادئاً من فكرة داخلية، نثق في صوابها، ثم نمضي خارجين منها إلى حيث العالم الطبيعي وما وراءه. وأما ثانيهما فهو الفيلسوف الإنجليزي بيكون، الذي رأى أن يكون طريق السير في الاتجاه المضاد، بادئاً من الطبيعة الخارجية وما نشاهده في ظواهرها، ثم نمضي داخلين إلى فكرة عقلية نقيمها ونكون على يقين من صوابها.[23]

والمناهج الوضعية العلمية السائدة منذ عدة قرون، تقوم على أنه لا يمكن اعتبار ما يقوم على التجربة والحواس علماً أو معرفة جديرة بالاهتمام، ولعل أوجست كونت (توفي1857م) أبلغ من عبر عن هذا التوجه بقوله: "إن العلوم الوضعية التي يجب أن تحتكر وتستأثر بدراسة الظواهر كافة، الطبيعية والعقلية والاجتماعية، بمناهج تجريبية محضة هي وحدها الجديرة بأن تسمى علوماً؛ وعلى نحو مقابل فإن الفلسفة لا تعدو أن تكون تأملات مجردة، أما الدين فخرافة وشعوذة".[24]

ومن قبل **أوجست كونت أكد ديفيد هيوم** (توفي1776م) **المنهج الوضعي التجريبي** نقيضاً للدين والفلسفة فقال :

"إذا أخذنا بين أيدينا كتاباً في اللاهوت (الدين) أو الميتافيزيقيا (الفلسفة) الموجهة إلى الطلاب، فلنتساءل: هل يشتمل على أي استدلال بخصوص الكم والعدد (الرياضيات)؟ لا. هل يشتمل على أي استقراء تجريبي بخصوص الوقائع والوجود؟ لا. إذن ألقِ به إلى الجحيم.".[25]

---

23 زكي نجيب محمود: تجديد الفكر العربي، بيروت: دار الشروق، 1973م، ص24.

24 The syntopicon: An Index to the Great Ideas, chap.88, “Science”, Chicago: Encyclopaedia Britanica Inc, 2nd ed, p542, 1990.

ورد في عرفان عبدالحميد فتاح، المصدر نفسه، ص22-23.

25 David Hume: An Inquiry concerning Human Understanding. The Great Books of Wetern World, University of Chicago: Encyclopaedia Britanica Inc, 2nd edition, p.509, 1990.

ورد في عرفان عبدالحميد فتاح، المصدر نفسه، ص22.

وجاء **فرويد** من بعد هؤلاء يكرس المنهج الوضعي في مجال الدراسات النفسية ليعلن أن العلم لا يمكن له أن يتعايش أو يتسامح مع الدين والفلسفة، مؤكداً أنه لا مصدر لمعرفة الكون سوى الملاحظة العلمية الدقيقة، وأنه لا يمكن أن نستقي أية معرفة معتبرة من الوحي أو الإلهام فيقول:

"ليس من الجائز أو المقبول الادعاء بأن العلم يختص بحقل من النشاط المعرفي ، وأن الدين والفلسفة يختصان بحقول معرفية أخرى، أو القول بأن لكل واحد من ألوان التهذيب الثلاثة نفس القيمة، أو الزعم بأن الإنسان حرٌّ في اختيار المصدر الذي يستقي منه أفكاره ومعتقداته. إن مثل هذه المزاعم قد تعكس موقفاً جديراً بالاحترام، إذ هو يتسم بالسماحة وسعة الأفق والتسامي عن التعصب، إلا أنه –مع الأسف– موقف لا يمكن الإقرار به لأنه فاسد باطل، وينطوي على كل الخواص المضللة والمناقضة لموقف لا علمي من الكون...، ذلك لأن المعرفة العلمية الحقة تضيق بطبعها بالتسامح... إن الدين هو أشد الأخطار التي تهدد سلطان المعرفة العلمية وحدودها، لما للدين من أثر فعال في المجتمع".[26]

ويرى فرويد أنه من المستحيل أن يتهاون الدين مع العلم أو العلم مع الدين، ذلك لأن الدين لا يقبل أن يعلن بوضوح أنه غير قادر على أن يمنح الناس الحقيقة، وأن العلم التجريبي وحده هو القادر على ذلك، وأن أي نفاذ للدين إلى حقول المعرفة يعد تجاوزاً غير مشروع يلزم رفضه ومقاومته.

وبالرغم من النجاحات الهائلة التي حققتها المناهج الوضعية –العلمية التجريبية– وخاصة في مجالات العلوم الطبيعية، فقد كانت أصولها من حيث التفسير الفلسفي للوجود وللمعرفة، هدفاً لنقد قوي بدءاً من النصف الثاني من القرن الماضي وحتى يومنا هذا، وقد كانت الحركة المضادة للوضعية رد فعل ضد صورة العالم كما عرضها العلم التجريبي الوضعي، الذي ساد الحياة والفكر.

---

26 The Major Works of Sigmund Freud, The Treat Books of Western World, No. 54, p722, 874.

ورد في عرفان عبدالحميد فتاح، المصدر نفسه، ص23-24.

وقد كان الدافع الأساسي للهجوم على الوضعية هو آلية العلم والنظرة القاصرة للطبيعة، تلك النظرة التي تستبعد فكرة الاختيار، والحرية، والفردية، والمسؤولية الأخلاقية.[27]

ومن نقاد الموضوعية العلمية العالم روزاك Roszak، الذي يعزو إليها انتشار حالة الاغتراب في الحياة المعاصرة فيقول:

"بينما تشير الآداب والفنون في يومنا الحاضر -في يأس متزايد- إلى أن المرض الذي سيؤدي إلى وفاة عصرنا الحالي هو الاغتراب... نجد العلوم في دأبها الدائم لتحقيق الموضوعية، ترفع الاغتراب إلى أعلى درجات الأهمية، وكأنه السبيل الوحيد لتحقيق علاقة صادقة مع الحقيقة، ويصبح الضمير الموضوعي هو حياة اغتراب، وصلت إلى أعلى مستوياتها من التقدير وسميت بـ "الطريقة العلمية". وتحت لواء هذه الطريقة تخضع الطبيعة لإرادتنا، وذلك بالابتعاد بأنفسنا -وبشكل متزايد- عن خبراتنا الذاتية حتى تصبح الحقيقة في النهاية عالماً من الاغتراب المتحجر".[28]

إن العلم التجريبي الموضوعي يستهزئ بالمعاني الذاتية ويسخر من بحث الإنسان عن المعنى والغاية وراء الظواهر الكونية والقوانين الطبيعة. ولقد تنبه إلى عقم المناهج العلمية التجريبية في تمكين الإنسان من الوصول إلى إجابات مقنعة عن الحياة وغايتها ومعناها كثير من علماء الغرب أنفسهم، نكتفي الآن بالاستشهاد برأي واحد منهم:

كتب **هولبروك** Holbrook ما يأتي:

"لم تنتج دراساتنا -إلى اليوم- للإنسان شيئاً يذكر، بل هي في حكم العدم، وذلك لخضوعها لحركة الوضعية، أي لمدخل الدراسة الذي يقول بأنه لا يمكن اعتبار أي شيء حقيقة إذا لم نستطع إثباته بالعلم التطبيقي Empriical Sceience وإتباع الطريقة المنطقية أي بموضوعية.

---

27 وليام تواضروس، وكوثر حسين كوجك، (مترجمان)، منهاج البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، القاهرة: الدار العربية للنشر، 1990، ص44.

28 T. Roszak: The Making of Counter Culture, London: Faber and Faber, 1970.
ورد في وليام تواضروس، المصدر نفسه، ص45-46.

وحيث أن مشكلة دراسة الإنسان تنتمي إلى الحقائق النفسية Psychic Reality وإلى عالم الإنسان الداخليInner World ، وظروفه المعنوية والخلقية وحياته الذاتية، فلا بد أن نعترف بإفلاس الوضعية، وفشل الموضوعية في إعطائنا حساباً دقيقاً عن وجود الإنسان، ولا بد كذلك من أن **نعمل على إيجاد طرق أخرى جديدة للبحث والاستقصاء**".[29]

وهكذا نرى أن الإنسانية جمعاء ظمأى إلى مناهج معرفية بديلة تضع في حسابها أن الإنسان كائن فريد في خلقه وتكوينه، متميز في عقله وروحه، قادر على توجيه سلوكه؛ مناهج تستجيب لنداء وجهه باحثان إلى العديد من العلماء الوضعيين العلمانيين بقولهما "بالله عليكم، ومن أجل العلم، عاملوا الناس على أنهم آدميون".[30]

وفي اعتقادنا أنه ليس غير النظام المعرفي القرآني نظاماً قادراً على معاملة الناس على أنهم آدميون متميزون، فما هي معالم هذا النظام؟

في المنظور الإسلامي والهدي القرآني كان الدين هو المصدر الأول للمعرفة، وقد سبق الدين الفلسفة والعلم التجريبي معاً في إمداد الإنسان بالعلم والمعرفة.

خلق الله الإنسان وشاء أن يجعله في الأرض خليفة، وهيأه لذلك بأن جعل اكتساب العلم في فطرته، والتعليم صنعته، نفهم هذا من منطوق آيات سورة البقرة:

﴿وإِذْ قال ربُّك لِلْملائِكةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأرْضِ خلِيفةً قالُوا أتجْعلُ فِيها منْ يُفْسِدُ فِيها ويسْفِكُ الدِّماء ونحْنُ نُسبِّحُ بِحمْدِك ونُقدِّسُ لك قال إِنِّي أعْلمُ ما لا تعْلمُون، وعلّم آدم الْأسْماء كُلّها ثُمّ عرضهُمْ على الْملائِكةِ فقال أنْبِئُونِي بِأسْماءِ هؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صادِقِين، قالُوا سُبْحانك لا عِلْم لنا إِلّا ما علّمْتنا إِنّك أنْت

---

[29] D. Holbrook: Education, Nihilsim and Survival, London Darton: Longman and Todd, 1977.

ورد في المصدر نفسه، ص: 46.

[30] R. Harre and P. Secord: The Explantion of Social Behaviour, Oxford: Basil Blackwell, 1972.

المصدر نفسه، ص49.

الْعلِيمُ الْحكِيمُ، قال ياآدمُ أنْبِئْهُمْ بِأسْمائِهِمْ فلمّا أنْبأهُمْ بِأسْمائِهِمْ قال ألمْ أقُلْ لكُمْ إِنِّي أعْلمُ غيْب السّماواتِ والْأرْضِ وأعْلمُ ما تُبْدُون وما كُنتُمْ تكْتُمُون﴾ (البقرة:30-33).

ثم نرى القدرة على التعلم وبعض وسائل التعليم من المشاهدة والنظر المتفكر، في قصة ابن آدم، في سورة المائدة عندما قتل الأخر أخاه حسداً:

﴿واتْلُ عليْهِمْ نبأ ابْنيْ آدم بِالْحقِّ إِذْ قرّبا قُرْبانًا فتُقُبِّل مِنْ أحدِهِما ولمْ يُتقبّلْ مِنْ الْآخرِ قال لأقْتُلنّك قال إِنّما يتقبّلُ اللّهُ مِنْ الْمُتّقِين، لئِنْ بسطت إِليّ يدك لِتقْتُلنِي ما أنا بِباسِطٍ يدِي إِليْك لِأقْتُلك إِنِّي أخافُ الله ربّ الْعالمِين، إِنِّي أُرِيدُ أنْ تبُوء بِإِثْمِي وإِثْمِك فتكُون مِنْ أصْحابِ النّارِ وذلِك جزاءُ الظّالِمِين، فطوّعتْ لهُ نفْسُهُ قتْل أخِيهِ فقتلهُ فأصْبح مِنْ الْخاسِرِين، فبعث اللّهُ غُرابًا يبْحثُ فِي الْأرْضِ لِيُرِيهُ كيْف يُوارِي سوْأة أخِيهِ قال يا ويْلتا أعجزْتُ أنْ أكُون مِثْل هذا الْغُرابِ فأُوارِي سوْأة أخِي فأصْبح مِنْ النّادِمِين﴾ (المائدة: 27-31).

هنا نرى أن الغراب قام مقام الباحث المعلم، ونرى مرة أخرى أن هدف هذا البحث هو تعليم ابن آدم **كيفية** المواراة، وتعلم الكيفية أرقى من تعلم الشكل، ولذلك فقد كانت وسيلة التعليم هي بإجراء مشاهدة حسية، وليست عملية تلقينية.

ومن أوثق ما يدلنا على بعض صفات المنهج القرآني المعرفي أن ننظر في "المنهج الإبراهيمي"، القائم على المشاهدة والتأمل والنظر في الآيات الكونية، ومن ثم إجراء تجارب عملية حسية:

﴿وكذلِك نُرِي إِبْراهِيم ملكُوت السّماواتِ والْأرْضِ ولِيكُون مِنْ الْمُوقِنِين، فلمّا جنّ عليْهِ اللّيْلُ رأى كوْكبًا قال هذا ربِّي فلمّا أفل قال لا أُحِبُّ الْآفِلِين، فلمّا رأى الْقمر بازِغًا قال هذا ربِّي فلمّا أفل قال لئِنْ لمْ يهْدِنِي ربِّي لأكُوننّ مِنْ الْقوْمِ الضّالِّين، فلمّا رأى الشّمْس بازِغةً قال هذا ربِّي هذا أكْبرُ فلمّا أفلتْ قال يا قوْمِ إِنِّي برِيءٌ مِمّا تُشْرِكُون﴾ (الأنعام: 75-78).

إن النظر في آيات الله الكونية بإخلاص القلب الباحث عن الحقيقة، هو الذي يقود إلى العلم والإيمان معاً، ثم إن العلم والإيمان هما اللذان يؤهلان الإنسان للعمل الصالح الذي هو مناط ابتلاء الله للإنسان في الأرض مصداقاً لقوله تعالى:

﴿تبارك الّذِي بِيدِهِ الْمُلْكُ وهُو على كُلِّ شيْءٍ قدِير، الّذِي خلق الْموْت والْحياة لِيبْلُوكُمْ أيُّكُمْ أحْسنُ عملًا وهُو الْعزِيزُ الْغفُورُ﴾ (الملك: 1-2).

وقد قال بعض العلماء: إن أحسن العمل أخلصه وأصوبه. والإخلاص أساسه الإيمان الصادق والنية الخالصة، والصواب والإتقان في العمل أساسه العلم المتخصص.

والإيمان الصادق لا يمنع صاحبه من البحث عن أدلة حسية للحقائق التي يؤمن بها، ولا أن يطلب من مصدر هذه الحقائق، على علو مكانته ومقامه في نفسه، أن يقيم الدليل على ما يقرر من حقائق، بل على العكس من ذلك فإن الإيمان الصادق، والثقة بمصدر العلم، يدفعان المتعلم إلى طلب المزيد من الأدلة والبراهين. هذا على غير ما جرت عليه بعض الأعراف التعليمية عند المسلمين، حول آداب المتعلم بين يدي المعلم. ولا أدل على ذلك من قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مع ربه التي حاكها القرآن في سورة البقرة:

﴿وإِذْ قال إِبْراهِيمُ ربِّ أرِنِي كيْف تُحْيِ الْموْتى قال أولمْ تُؤْمِنْ قال بلى ولكِنْ لِيطْمئِنّ قلْبِي قال فخُذْ أرْبعةً مِنْ الطّيْرِ فصُرْهُنّ إِليْك ثُمّ اجْعلْ على كُلِّ جبلٍ مِنْهُنّ جُزْءًا ثُمّ ادْعُهُنّ يأْتِينك سعْيًا واعْلمْ أنّ الله عزِيزٌ حكِيمٌ﴾ (البقرة: 260).

وهكذا نرى أن المنهج الإبراهيمي القرآني في اكتساب العلم، يقوم على السؤال والبحث عن الجواب عند من عنده الجواب. ومرة أخرى فقد كان السؤال عن كيف ومن مقتضيات التعلم في هذا المقام أن يقوم المتعلم بجهد كبير يستخدم فيه جميع طاقاته وحواسه، فإن اصطياد أربعة طيور بوسائل بدائية ليس عملية سهلة، ثم ارتقاء عدد من الجبال كذلك، لا يطيقه إلا متعلم مثابر. وطلب منه أن يقوم بتجربة ويشاهد نتائجها. ونستطيع أن نؤكد كذلك، دون تنطع، أن من صفات المنهج القرآني المعرفي، أنه يعتمد من بين وسائله البحث الميداني والمشاهدة الحسية.

وقبل أن نختتم هذا الجزء نريد أن نشير إلى أسلوب قرآني آخر في التعليم، ذلكم هو أسلوب ضرب الأمثال. فقد وردت كلمة (مثل) ومشتقاتها في القرآن الكريم حوالي (169) مرة، وتكاد جميعها تدور حول

الأحداث والأمور المتعلقة بالإنسان فرداً وجماعة، وما يتعلق به من أعمال ومجتمعات وأحوال نفسية وأخرى حضارية، والحكمة في ضرب هذه الأمثال تدل عليها آيات مثل قوله تعالى:

﴿ألمْ ترى كيْف ضرب اللهُ مثلًا كلِمةً طيّبةً كشجرةٍ طيِّبةٍ أصْلُها ثابِتٌ وفرْعُها فِي السّماءِ، تُؤْتِي أُكُلها كُلّ حِينٍ بِإِذْنِ ربِّها ويضْرِبُ اللهُ الْأمْثال لِلنّاسِ لعلّهُمْ يتذكّرُون﴾ (إبراهيم: 24-25).

﴿مثلُ الّذِين اتّخذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أوْلِياء كمثلِ الْعنكبُوتِ اتّخذتْ بيْتًا وإِنّ أوْهن الْبُيُوتِ لبيْتُ الْعنْكبُوتِ لوْ كانُوا يعْلمُون(41) إِنّ الله يعْلمُ ما يدْعُون مِنْ دُونِهِ مِنْ شيْءٍ وهُو الْعزِيزُ الْحكِيمُ، وتِلْك الْأمْثالُ نضْرِبُها لِلنّاسِ وما يعْقِلُها إِلّا الْعالِمُون﴾ (العنكبوت: 41-43).

﴿لوْ أنْزلْنا هذا الْقُرْآن على جبلٍ لرأيْتهُ خاشِعًا مُتصدِّعًا مِنْ خشْيةِ اللهِ وتِلْك الْأمْثالُ نضْرِبُها لِلنّاسِ لعلّهُمْ يتفكّرُون﴾ (الحشر: 21).

فقيمة الأمثال وفائدتها، لا تتحقق إلا مع **التذكر والتعقل والتفكر**، وليس من صفات الذاكرين العاقلين المتفكرين أن يمروا بآيات الله صماً وعمياناً، بل من صفاتهم أن يمعنوا النظر، ويبذلوا الجهد ليستخرجوا من كنوز القرآن جواهر علمية في جميع مجالات الحياة، وما يتصل بها من علوم نفسية واجتماعية وكونية.

لذلك وجدنا عالماً مثل **أبي الحسن الأنباري** يجلس في المسجد يدرس الفلك في **المجسطي** فيمر عليه بعض الفقهاء فيسأله أحدهم: ما تدرس؟ فقال أفسر أية من كتاب الله تعالى، فقال الفقيه: ما تلك الآية، فقال الأنباري: قوله تعالى: ﴿أفلمْ ينْظُرُوا إِلى السّماءِ فوْقهُمْ كيْف بنيْناها﴾ (قّ:6)، فأنا أفسر كيفية بنائها. وهذا المعنى نجده عند عالم آخر عندما سئل السؤال نفسه، فكان جوابه: إنه يشرح الآية الكريمة: ﴿أفلا ينْظُرُون إِلى الْإِبِلِ كيْف خُلِقتْ، وإِلى السّماءِ كيْف رُفِعتْ، وإِلى الْجِبالِ كيْف نُصِبتْ، وإِلى الْأرْضِ كيْف سُطِحتْ﴾ (الغاشية: 17-20).[31]

---

31 عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب: مصدر سابق، ص113.

لم يكن المراد في هذه العجالة استقصاء أساليب القرآن التعليمية والتربوية، فقد كتبت في هذا المجال عدة رسائل جامعية ومقالات وكتب يمكن للراغب الرجوع إليها.[32]

مصادر المعرفة

للمعرفة في النظام المعرفي القرآني مصدران متكاملان متآزران هما:

1- الوحي
2- الكون (الخلق)

والوسيلة لاكتساب المعرفة من كليهما هي العقل ولا سبيل لاكتسابها إلا به، ومن هنا فإننا نخالف ما شاع في كتابات عدد من علماء المسلمين من اعتبار العقل مصدراً للمعرفة جنباً إلى جنب مع الوحي، ذلك أن معارف الوحي ومعارف الكون لا يتوصل إليها إلا بفعل التفكر والتدبر والتذكر والتعقل، والعقل ليس عضواً في الإنسان بل هو **طاقة وقدرة وعمل**، ولم يرد في القرآن الكريم إلا **بصيغة الفعل** لا بصيغة الاسم.

ولعل كثيراً من علماء المسلمين معذورون في اعتبار العقل مصدراً من مصادر العلم والمعرفة خاصة إذا نرى عالماً في منزلة **أبي حامد الغزالي** يقرر ما يأتي:

"العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين".[33]

فلو كان العقل مصدراً للعلم، فما الوسيلة التي يستخرج أو يتوصل بها إلى العلم من هذا المصدر؟

---

32 من هذه الرسائل الجامعية ما يلي:

أ- أحمد عبد الفتاح محمد شعلة: دراسة تحليلية لبعض أساليب التربية الإسلامية في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية ببنها، مصر: جامعة الزقازيق، 1990.

ب- سيد أحمد سيد طنطاوي: القيم التربوية في القصص القرآني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية جامعة أسيوط، مصر، 1985.

ج- عبد الله محمد أحمد الحريري: القيم في القصص القرآني الكريم، رسالة دكتوراه، جامعة طنطا (مصر)، 1988.

ولمزيد من المعلومات حول مثل هذه المسائل يراجع د. عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب: مصدر سابق.

33 أبوحامد الغزالي: مصدر سابق، ص83.

العقل لا شك طاقة فعل، ووسيلة يتوصل بها للمعرفة والعلم من مصدريهما الأساسيين: **الوحي والكون**. إن الوحي يمثل دائرة المعارف الإسلامية أما الكون فإنه يمثل المعجم والمختبر الذي يحتوي على مفردات هذه الدائرة، فيقوم الباحث المتعلم بالنظر في مفردات هذا المعجم مسترشداً بما جاء في دائرة المعارف، فالكون في النظام المعرفي القرآني هو الجامعة المفتوحة وفيها أنواع من المختبرات والتجارب والمشاهدات لا تحصى، وفي هذه الجامعة الكبرى يكون القرآن الكريم هو الكتاب الجامعي الواجب دراسته، ولا يتخرج أحد من هذه الجامعة دون إكمال هذا المتطلب الجامعي، والرسول **صلى الله عليه وسلم** هو الأستاذ والمرشد الأول لدراسة هذا الكتاب، للحصول على شهادة علمية من هذه الجامعة.

إن هذه الجامعة تنفي أن يكون هناك تفكير بلا عقل أو عقل بلا تفكير، ومن جهة أخرى فإن الذكر والفكر في هذه الجامعة توأمان، والدارسون فيها يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿إِنّ فِي خلْقِ السّماواتِ والْأرْضِ واخْتِلافِ اللّيْلِ والنّهارِ لآياتٍ لِأُولِي الْألْبابِ، الّذِين يذْكُرُون الله قِيامًا وقُعُودًا وعلى جُنُوبِهِمْ ويتفكّرُون فِي خلْقِ السّماواتِ والْأرْضِ ربّنا ما خلقْت هذا باطِلًا سُبْحانك فقِنا عذاب النّارِ﴾ (آل عمران: 190-191).

حقاً يعد الكون للعلماء المؤمنين الذاكرين المتفكرين جامعةً ومحراباً: جامعةً فيها تكتشف العلوم وتكتسب المعارف، ومحراباً يذكر فيه الله ويوحد ويعبد ويمجد.

في النظام المعرفي القرآني يختتم المؤمن رحلته في الكون لطلب العلم في تسبيح وذكر ودعاء ونفي العبثية عن الخلق والخالق، أما في النظام المعرفي العلماني فتنتهي رحلة العلماء إلى علم ظاهر سطحي يُختتم فيه طلب العلم بعربدة ومجون وطغيان وصنع أدوات القتل والقهر والسيطرة والإفساد.

أهداف العلم والمعرفة، وأهداف التربية الإسلامية

إن أهداف العلم والمعرفة في النظام المعرفي القرآني، تقوم على تحقيق مراد الله من خلقه للإنسان واستخلافه في الأرض التي تدل عليها مثل هذه الآيات:

﴿وذَكِّرْ فإِنّ الذِّكْرى تنفعُ الْمُؤْمِنِين، وما خلقْتُ الْجِنّ والْإِنس إِلّا لِيعْبُدُونِ(56)ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وما أُرِيدُ أنْ يُطْعِمُونِ، إِنّ الله هُو الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمتِينُ﴾ (الذاريات: 55-58).

﴿الّذِي خلق الْموْت والْحياة لِيبْلُوكُمْ أيُّكُمْ أحْسنُ عملاً وهُو الْعزِيزُ الْغفُورُ﴾ (الملك:2).

﴿وإِلى ثمُود أخاهُمْ صالِحًا قال يا قوْمِ اعْبُدُوا الله ما لكُمْ مِنْ إِلهٍ غيْرُهُ هُو أنشأكُمْ مِنْ الْأرْضِ واسْتعْمركُمْ فِيها فاسْتغْفِرُوهُ ثُمّ تُوبُوا إِليْه إِنّ ربِّي قرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود: 61).

﴿ولقدْ أهْلكْنا الْقُرُون مِنْ قبْلِكُمْ لما ظلمُوا وجاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبيِّناتِ وما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كذلِك نجْزِي الْقوْم الْمُجْرِمِين، ثُمّ جعلْناكُمْ خلائِف فِي الْأرْضِ مِنْ بعْدِهِمْ لِننْظُر كيْف تعْملُون﴾ (يونس: 13-14).

﴿وكذلِك جعلْناكُمْ أُمّةً وسطًا لِتكُونُوا شُهداء على النّاسِ ويكُون الرّسُولُ عليْكُمْ شهِيدًا﴾ (البقرة: 143).

ونضيف إلى هذه الآيات المختارة آيات تتعلق بوظيفة الرسول الكريم ومهمته:

﴿هُو الّذِي بعث فِي الْأُمِّيِّين رسُولًا مِنْهُمْ يتْلُو عليْهِمْ آياتِهِ ويُزكِّيهِمْ ويُعلِّمُهُمْ الْكِتاب والْحِكْمة وإِنْ كانُوا مِنْ قبْلُ لفِي ضلالٍ مُبِينٍ، وآخرِين مِنْهُمْ لما يلْحقُوا بِهِمْ وهُو الْعزِيزُ الْحكِيمُ، ذلِك فضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ منْ يشاءُ واللهُ ذُو الْفضْلِ الْعظِيمِ، مثلُ الّذِين حُمِّلُوا التّوْراة ثُمّ لمْ يحْمِلُوها كمثلِ الْحِمارِ يحْمِلُ أسْفارًا بِئْس مثلُ الْقوْمِ الّذِين كذّبُوا بِآياتِ اللهِ واللهُ لا يهْدِي الْقوْم الظّالِمِين﴾ (الجمعة: 2-5).

وباختصار شديد -لا يخلو من النقص- نستنتج أن أهداف النظام المعرفي القرآني، وبالتالي أهداف التربية الإسلامية تتركز حول إخراج الإنسان (الفرد والأمة) المؤمن الصالح المصلح، العابد لله الواحد، الحر المتحرر. وتتخلص هذه الأهداف فيما يأتي:

1- المحافظة على سلامة الفطرة الإنسانية بتزكيتها وتنقيتها من الشرك بأنواعه وملابساته كافة، وإقامتها على التوحيد الخالص والعبادة لله وحده وتعهدها في ذلك.

2- إعداد الإنسان (الفرد والجماعة) الصالح المصلح القادر على إعمار الدنيا والقيام بمهمة الاستخلاف فيها، وإعمار الآخرة بالعلم النافع والعمل الصالح: إعداده لحياة فاضلة في الدنيا وحياة ناجية في الآخرة: ﴿ومِنْهُمْ منْ يقُولُ ربّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حسنةً وفِي الْآخِرةِ حسنةً وقِنا عذاب النّارِ﴾ (البقرة:201).

3- إخراج الأمة المسلمة وبلوغها منزلة الخيرية التي تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، تقوم بمسؤولية الشهادة على الناس بإبلاغهم رسالة الإسلام.

4- هداية الإنسانية إلى عبادة خالقها وإخراجها من الشرك إلى التوحيد، ومن الجور إلى العدل، ومن العسر إلى اليسر، ومن الضيق إلى السعة، ومن التجزئة إلى الوحدة، ومن التفاضل إلى المساواة، ومن اللامعنى إلى الغاية والمعنى.

وبكلمات قلائل، إن هدف النظام المعرفي القرآني هو تحقيق إنسانية الإنسان وتحقيق بلوغ الكمال والتكريم الذي خلق له وذلك هو العبادة حقاً. العبادة القائمة على الإيمان والعلم والعمل الصالح.

تلخيص وإجمال

إن تحديد أهداف رسالة القرآن وموضوعاته لابد أن يكون محدوداً بحدود التكوين المعرفي والثقافي للدارس نفسه وكذلك بحدود الزمان والمكان اللذين يحتويان أي دارس. ومن هنا فليس من قبيل التواضع أن نؤكد أن هذا البحث المختصر لا يقدمه صاحبه بديلاً لجهود الآخرين بل رديفاً لها، مؤملاً أن يزداد اهتمام الدارسين لتجلية أبعاد أخرى من النظام المعرفي القرآني بشكل أشمل وأعمق وفي هذا الإطار نؤكد ما يأتي:

1- إن من أهم غايات التنزيل القرآني قضيتين وغايتين هما:

أ- نفي الشرك وإبطاله بجميع أشكاله ومستوياته، وتثبيت التوحيد بجميع مجالاته ومدلولاته، وتحرير عقل الإنسان وإرادته وحفظه في نفسه وماله وعرضه.

ب- إقامة نظام معرفي شامل متكامل، يؤلف بين معرفة الخالق ومعرفة ما خلق؟ ومن خلق؟ وكيف خلق؟

والحقيقة إن تثبيت التوحيد عقيدة وفكرة ومنهاجاً للحياة والعمل، لا يقوم إلا على نظام معرفي مؤسس على التوحيد بين جميع أنواع المعارف، وإنهاء الانفصام والانشطار بين ما يسمى العلوم النفسية والاجتماعية والإنسانية والعلوم الكونية والطبيعية، بل لعل الأهم من ذلك إنهاء ما طرأ من انفصام وصل إلى درجة الخصومة بين ما اصطلح على تسميته بالعلوم الشرعية وأنواع العلوم الأخرى كافة.

2- على صعيد آخر، يقوم النظام المعرفي القرآني على إنهاء الانفصال بين الإيمان والعلم من جهة، وبينهما وبين العمل الصالح من جهة أخرى، بحيث لا يطفو في المجتمع الإسلامي علماء بلا هداية أو مهتدون بلا علم، كلا ولا علماء مهتدون بلا أعمال صالحة، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿والْعصْرِ، إنّ الْإنسان لفِي خُسْرٍ، إلّا الّذِين آمنُوا وعمِلُوا الصّالِحاتِ وتواصوْا بِالْحقِّ وتواصوْا بِالصّبْرِ﴾ (العصر: 1-3).

وقوله تعالى: ﴿يرْفعْ اللّهُ الّذِين آمنُوا مِنْكُمْ والّذِين أُوتُوا الْعِلْم درجاتٍ واللّهُ بِما تعْملُون خبِيرٌ﴾ (المجادلة: 11).

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أتمّكم عقلاً أشدكم لله خوفاً، وأحسنكم فيما أمركم به، ونهى عنه نظراً، وإن كان أقلكم تطوعاً".

إن التوحيد في القرآن نظام معرفي، ونظام المعرفة القرآني نظام توحيدي، فالتوحيد معرفة وعلم، والمعرفة والعلم هداية وتوحيد، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فاعْلمْ أنّهُ لا إله إلّا اللّهُ واسْتغْفِرْ لِذنْبِك ولِلْمُؤْمِنِين والْمُؤْمِناتِ واللّهُ يعْلمُ مُتقلّبكُمْ ومثْواكُمْ﴾ (محمد:19).

وعلى هذا نقرر أن أركان النظام المعرفي في القرآن ثلاثة:

إيمان وعلم وعمل.

وعلى هذه الأركان ومن أجلها يجب أن يقام نظام التربية والتعليم الإسلامي الذي يقوم به المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، لا من أجل المسلمين فحسب، بل من أجل تحرير الإنسانية جمعاء، إذ لا صلاح للإنسان بغير صلاح المسلمين.